تغريد بلابل متعبة

مسرحية

كتبها

ضرغام الدباغ

و

قدَم لها في دراسة تحليلية

أ. د. جليل كمال الدين

بغداد

1987

تغريد بلابل متعبة

مسرحية

كتبها ضرغام الدباغ

وقدَم لها في دراسة تحليلية : أ. د. جليل كمال الدين

كتبت ببغداد / 1987

الطبعة الثانية / 2020

المركز العربي الألماني / برلين

الرقم (41)

المطبوع مجاني

مقدمة

الأستاذ الدكتور جليل كمال الدين

شاء الصديق والأديب الكبير الأستاذ الدكتور جليل كمال الدين الذي قاسمني تجربة كبيرة خضنا غمارها معاً، أن يدبج مقدمة يكتبها بنفسه، وله مني الشكر العميق، والدكتور جليل كمال الدين أديب غني عن التعريف، له من الأعمال ما تزيد على الثلاثين، ومرب وأستاذ جامعي فاضل، وهو من الشهراء في عالم الأدب والمعرفة.

أردت بهذه الكلمات البسيطة التي لا تفي شخصه أن اشكره.

ضرغام
أبو غريب / بغداد المنصورة

دراسة تحليلية

د. جليل كمال الدين

1

شدد الدكتور لويس عوض/ الناقد العربي الكبير في مقابل أجرته معه مجلة كل العرب، العدد: 232 الصادرة في 1978/2/4 (حاورته مايا فريد)، شدد على أهمية قيم الحرية والديمقراطية في الواقع العربي المعاصر، لا سيما القطاع الثقافي منه، فقال:

" أنا وجيلي أمثال نجيب محفوظ ويوسف إدريس وغيرنا لم نكن نفكر أن يمتلك أي منا سيارة أو شقة، كل أحلامنا كانت تدور حول كيفية تكوين أنفسنا على أرقى وجه ممكن، وأن يكون نافعاً لبلده ولو كان خاسراً في الصفقة، كنت أدرس في إنكلترا وفرنسا مع زملائي مندور وعلي الجريتلي، كانت أعيننا دائماً على مصر، ونتسائل: عندما نعود ماذا نفعل من أجلها..؟ ولكن الأجيال الحالية أو العنصر الجديد دخل الحياة المصرية من باب واسع بحيث أصبح من الصعب مقاومته. طبعاً لأنا لا اشك في أن هناك أجيالاً لا تزال بريئة وقادرة على الحلم، ولكني أركز على هذا العنصر الجديد الذي نتج عن الانفتاح الذي جعل تكاليف الحياة عشرين ضعفاً عما كانت عليه في نهاية عهد عبد الناصر، لذلك فهذا الجيل مجني عليه.

كانت القدوة في أيامنا موجودة دائماً وكنا نلقى دائماً نوعاً من الرعاية والحماية من الأدباء المستنيرين أمثال طه حسين وشفيق غربال وأحمد أمين، ربما كانوا غير قادرين على الحصول على أموال طائلة، ولكن كانت لديهم قدرة جبارة على الوقوف أمام الظلم والطغيان .. نحن الآن نفقد المصداقية .. وأنا اشعر الآن أن الجيل الذي جاء بعدنا من النقاد ومن الكتاب المبدعين ينظر لنا شزراً، أنا منذ أيام الثورة تبنيت الحركة الأدبية وكنت أدفع بكثير من الكتاب مثل كتاب المسرح أمثال: نعمان عاشور، والفريد فرج منذ عام 1954، وكنت سعيداً به عندما جاء لي بترجمة (أنتيجون) لجان نوي، ذهب إلى المنابع الأصيلة للدراما ليتعلم منها، أما الآن فإذا وجهت أحد الأدباء من الجيل الحالي كي يتعلم اللغة الإنكليزية مثلاً، يغضب ويثور، ويتهمونني بالتعالي على الجيل الجديد.

وأنا أقبل هذا الاتهام لأن الذي يفصل بيني وبينهم هو التاريخ، فالكاتب الجاهل يظهر جهله والكاتب الردئ يظهر رداءته، وأنا أشعر أنهم احتلوا مراكز صحفية، أي أنهم مهتمون اهتماما بالغاً ببناء أنفسهم مادياً بما لا يسمح لهم استكمال أدواتهم الفنية، وكل ما يسعون إليه أن يكون لهم نفوذ في الصحافة المصرية أكثر من قامتهم الحقيقية، ثم تجاوزا هذه إلى محاولة إكراه الكتاب الكبار لكي يجاملوهم، ويسببون لهم الكثير من الإحراج، ومن الكتاب من يجاملهم أو يداريهم، وليس هناك كاتب واحد لديه الجرأة ليواجههم بالحقيقة.

أنا لا أنكر أن هناك مدرسة من الشباب تجدد تقاليد مدرسة الالتزام، وهي مدرسة موهوبة، لكن المشكلة الرئيسية عندها أن أبنائها كما قلت متعجلون للوصول، وكل منهم يرغب في أن يكون نجيب محفوظ آخر، وينسى أن نجيب محفوظ لم يصبح كذلك إلا بعد ثلاثين عاماً من المثابرة والدأب المستمر، وهذه الحالة بالفعل توجد فراغاً في الأدب العربي الحديث بين جيلين: جيل في طريقه إلى الانقراض، وجيل لم يتكون نهائياً بعد.

الشباب الآن أصيب بنوع من الصدمة بالفعل، فأفاق من الآمال العريضة، وفكر في أن يتحرك على أرض الواقع فقط، وبطبيعة الحال هذا وضع مؤسف، لأن شباباً بلا أحلام ليس شباباً، جزء لا يتجزأ من شخصية الشباب أن تكون هناك فجوة من نوع ما بين الحلم والحقيقة، إنما الشاب الذي يشيخ قبل الأوان ويصبح عملياً قبل الأوان، هو النمط السائد الآن، الشاب يبلغ الشيخوخة في سن العشرين، فنراه ينصاع إلى المؤسسة الاجتماعية، ويصبح جزء كبير من سلوكه ليس نابعاً من قلبه، وحتى مثلاً اعتقاداته السياسية يدخل فيها عنصر المصالحة مع المجتمع لأنه لا يريد أن يجازف في سبيل حقوق الإنسان، وليست هناك درجة من درجات جنون الحلم التي كان يصاب بها الشباب في الأجيال الماضية مما يجعل الشباب طليعة الثوريين والقوة القادرة على التغيير في المجتمع.

إن الجيل الذي نشأ في الفترة الناصرية كان مزوداً بكم هائل من الأحلام، وأعتقد أنه كان في سبيله لأن ينجز كل شيء، فلما جاءت الهزيمة في 1967، أطاحت بكل هذه الأحلام، وأثبتت أنها تكاد أوهاماً، فبعضهم، أي العقلاء منهم انسحبوا وحاولوا استرداد توازنهم بالالتصاق بأرض الواقع، وغير العقلاء ذهبوا إلى النقيض، فبدؤا في نهش النفس ونهش الغير بطريقة تدميرية واستسلموا إلى مثل عليا جديدة تحت اسم الواقعية، وأنا أعتقد أن الواقعية بريئة منهم، وهي البحث عن المال " .

وأختتم الناقد لويس عوض حديثه الجرئ الصريح بشيء من التفاؤل حين قال:
" نحن الآن نبحث عن الصيغة الجديدة، وعندما نهتدي إلى هذه الصيغة، وعندما تتكشف لنا ملامح المجتمع الجديد بطبقاته الجديدة، وتستقر فيه بعض الأوضاع الشاذة ونعرف له ملامح واضحة، فإنني واثق أن هذا المجتمع سوف يعزز الفن والأدب اللائقين به، لأن مصر قادرة دائماً على تعويض ما فاتها، تمر بفترات قوة وضعف، وبمجرد أن تستجمع قوتها، تعود مرة أخرى إلى فترات القوة، في يجب أن نيأس، لأن الصورة فيها بعض الفراغات، ولكن يجب أن نضع الأمل أمامنا دائماً " .

إن هذه الصورة التي يقدمها الدكتور لويس عوض للواقع الثقافي(بما فيه الواقع المسرحي) العربي المعاصر في مصر تكاد تصح على معظم الأقطار العربية، وعلى صعيد آخر، فإن الدكتور عوض لا يتغير (وهو النقد المثقف العربي الكبير) بهذا التقييم للواقع الثقافي العربي الراهن، فإن مبدعين كبار أمثال نجيب محفوظ ويوسف إدريس ومحمد عيتاني وعبد الوهاب البياتي والدكتور أمير اسكندر والدكتور غالي شكري، والشاعر أحمد سليمان والناقد أحمد فتحي، والموسيقار زياد رحباني وعديدين آخرين يشاركون الدكتور عوض رأيه ويشاطرونه مقولاته بهذا الشكل أو ذاك.

فقد أشار الروائي العربي الكبير نجيب محفوظ مثلاً غير مرة، إلى أزمة الثقافة، وأزمة النقد بخاصة فقد قال (في حوار له مع مجدي إبراهيم نشرته مجلة آفاق عربية في عددها الصادر في يناير /1978): " كانت الحركة النقدية وقتها مزدهرة(يقصد فترة الخمسينات والستينات) أما الآن وبكل صراحة، فليست بمزدهرة على الإطلاق لأسباب خارجة عن النقاد أنفسهم، ومؤسسات الإعلام التي كانت تفتح صدرها للنقاد لا توجد الآن ".

كما أكد في حوار له نشرته مجلة النهضة الكويتية العدد 1037 في 3 أيلول 1978) أن: " أن الفن بطبيعته يتهجه إلى النقد، نقد المجتمع ونقد الحياة، فإذا كان يجد انحرافاً ولا ينقده، فكيف نرى عيوبنا إذن ونتحرك لإصلاحها ..؟ لقد تراجع دور المسرح والسينما إلى حد كبير في الفترة الماضية، والسبب أن روادها الأساسيين ذوي الدخول المحدودة حل منحلهم جمهور غير

جاد، يملك المال ولكن ليس لديه خلفية ثقافية ولا يريدها، إن الدخلاء على السينما لا هم لهم إلا بتحقيق الكسب فقط ولو على حساب القيمة الفنية، وهؤلاء ينبغي محاربتهم ".

أما الكاتب والمسرحي العربي البارز يوسف أدريس، فإنه يسهم في هذا الخطاب النقدي بطريقته الخاصة، ومن منطلقاته الخاصة ليؤكد أن الانتشار الكمي لم يعكس التطور الثقافي المرتجى، لأن القبائل الفكرية وعقلية الانفتاح التجاري قد أفسدت الجو الثقافي ويختتم خطابه(في مجلة الأسبوع العربي العدد 1444 الصادر 1987/6/15) بقوله: أخشى أن تصبح البندقية بديل للكلمة، نحن جوعى للحوار، وأعتقد أن الحوار بالكلمة هو البديل الموضوعي للحوار بالمسدسات والبنادق، وأستطيع أن أقرر وأقول أنه إذا لم يمر المجتمع العربي بمرحلة الحوار بالكلمة، فإن المرحلة المقبلة كلها سوف تشهد حالات عنف رهيبة وسيصبح زناد البندقية هو الضابط للحوار المكتوم، هذه ليست نبوءة شؤم، ولكنها قراءة في آيات الواقع العربي ومستقبله ".

ويشير الشاعر السوري أحمد سليمان الأحمد إلى هوية الواقع الثقافي العربي الراهن فيحددها بهذا الشكل: " بالنسبة لانحطاط المرحلة التي نمر بها ، فنحن نمر بأشأم مرحلة جالبة للهوان، ولا أقصد بالناحية السياسية فقط، ولكن من الناحية الاجتماعية والثقافية أيضاً "(حوار في مجلة أسفار العراقية العدد 8).

ونستطيع أن نمضي طويلاً في إيراد أمثال هذه الشهادات والمقولات البليغة لساطين فكرنا وثقافتنا العربية المعاصرة، في رؤية وتشخيص هموم الواقع الثقافي الراهن، وليس أبلغ في تلخيص ذلك من إشارات مجلة (اليوم السابع الفلسطينية العدد 179 في 1978/10/13) بعنوان " صورة تراجعية للثقافة العربية " حيث تطغي أفلام السحر والشياطين والغرائز والميكافيلية في الفكر السياسي.

إذا كان العديد من المعنيين بالأمر أو معظمهم يشخصون الإشكال الثقافي في غياب الحرية والديمقراطية، فما هو السبيل إذن للحل وكيف النهوض من وهدة ما نعاني من ترد في الواقع الثقافي والاجتماعي ..؟

إن الحل هو الالتزام بهموم الأمة والشعب، وتصوير الواقع من خلال تطوره الثوري وعدم التراجع أمام القهر والطغيان والقيود والسدود الإمبريالية والصهيونية والرجعية الظلامية، هكذا أيضاً يتفق جميع المعنيين بالأمر أو معظمهم، وقد مر بنا ذلك في ثنايا حديث الناقد الدكتور لويس عوض، وإشارات أبرز المبدعين والمفكرين العرب كنجيب محفوظ ويوسف إدريس والبياتي وأحمد سليمان الأحمد والراحلين الشاعر خليل حاوي وصلاح خالص وأكرم فاضل وغيرهم.

ولعظمة هذه الحقيقة ولصالتها، فإن عديداً من الكتاب والمثقفين والمبدعين العالميين يؤكدون الحقيقة وأصالتها فإن عديداً من الكتاب والمثقفين والمبدعين العالميين يؤكدون عليها أيضاً ويشيرون إليها أبلغ ما تكون الإشارة، إذ يستنتج الكاتب البريطاني المشهور كولن ولسن مثلاً في كتابه: فن الرواية (ص 82 دار المأمون بغداد/1986) : أن " كل ما هو ضروري أدراك الروائي هدفه الحقيقي ليس مجرد عكس بانوراما هائلة من اللاجدوى والفوضى اللتين تتمثلان في التاريخ المعاصر، بل تحرير الخيال الإنساني وإعطاء الإنسان لمحة لما يمكن أن يصبح، ويتحتم عليه أن يتعلم إدراك ما قصده برنارد شو عندما قال : أن العمل الفني مرآة سحرية

يستطيع من خلالها الإنسان أن يرى روحه، وعندما يكون قد أدرك ذلك، سيكتشف أن مرآته السحرية تتمتع بوظيفة أخرى أكثر فائدة: الكشف عن طريق ارتقاء البشر في المستقبل".

ويؤكد كاتب بريطاني آخر هو الكاتب المسرحي ميشيل جوليان أكثر من ذلك، قيمة وأهمية الأصالة الفنية والثقافية والخصوصية الوطنية والقومية في الإبداع الفني وبما فيه الإبداع المسرحي، إنه يقول في لقاء عقدته معه مجلة ألف باء العراقية ونشرته في العدد 958 في فبراير/1981 : " إنني آسف لما رأيت، صحيح أنني لم أمضي سوى أيام معدودة مما قد يجعل تحليلاتي سطحية المضمون، ولكن ما رأيته لا يحمل سوى معنى واحد، وهو القبول بأن كل ما في الغرب جميل .. كيف ..؟ لديكم طموح لخلق مسرحكم الخاص، وشكراً للجهات المسؤولة التي جهزت حسبما رأيت عدداً من المسارح الجميلة، نعم هي جميلة كمبان وهي مريحة تماماً، ولكنها أوربية الطراز، فهي نسخ من عمارة المسارح الأوربية الموجودة في الستينات أو السبعينات، وفي تفسيري أن ما أجده مؤلم ليس فقط لأنكم تبنون مسارح على الطراز الغربي، وليس لاحتمال تقليدكم الأفكار الأوربية للنتاجات المسرحية، ولكن لما قد يجر ذلك من احتمالات السقوط في الفخ الأوربي وبأن ينتهي بكم الأمر بجمهور بورجوازي، وإذا ما تابعتم هذا الطريق، فإن الأمر سينتهي بأن تواجهوا المشاكل التي نواجهها عندنا في الغرب، فالعاملون في المصانع لا يذهبون إلى المسرح، لماذا ..؟ يجب أن يذهبوا، أنها مسؤوليتنا الأخلاقية لإيجاد طرق نشجع بها ذهابهم إلى المسرح. وما رأيته هنا هو شريحة صغيرة من المجاميع تذهب إلى المسرح ولا تفهم ما يعرض، وبالتالي تخرج من المسرح خلال العرض، أعلم أنهم يمتلكون هذا الحق، ولكن ما لم تنتبهوا على أن لا تسقطوا في فخ تقليد الآخرين وما لم تكونوا منحازين لثقافتكم فسوف تفقدون جمهوركم إلى الأبد، وتنتهون بمسرح يحرمكم من تقاليدكم الخاصة ".

وحول انطباعه عن الجمهور المسرحي العراقي، يقول جوليان: الذي رأيته أن الجمهور كان يأتي في البداية بمشاعر طيبة وبشوق لاستلام المعلومات، وما هي إلا عشر دقائق حتى يخرج بعض من الجمهور تاركاً المسرح.

وأعتقد أن شعورهم مشابه لشعوري، والآن هذا يعطيني فكرة عن المسرح، لقد غادروا المسرح لأنهم لم يستطيعوا التعرف عليه، ولأن العروض لم تكلم الناس بلغتهم الخاصة، ولم تحرك خيالهم، كان على المسرحيين أن يكونوا حساسين تجاه الجمهور لأن عليهم التزاما أخلاقياً، فالخطأ هو خطأهم إذا ما خرج الجمهور من المسرح، المسرح المعاصر يدور حول نفسه، كيف..؟ إن ما يقدمه المسرح الحالي لا يتعدى العروض الموسيقية والمسرحيات الكوميدية البسيطة، وعروضاً تحوي الكثير من المؤشرات التقنية وقليلاً من المضمون، وهذا ما يفعله التلفزيون، بمعنى أن كلاً منهما يشابه ورق الحائط الذي صمم ليساعد الناس على الهرب من واقعهم بما فيه من مناظر طبيعية، مثلاً بدلاً من مواجهته، أما المسرح الذي يهمني، فهو الذي يحرك الجمهور ويدفعهم إلى التفكير والعيش بعمق عبر التجربة التي يشاهدها تعاش على الخشبة المسرحية". لقد وضع هذا الفنان البريطاني(جوليان) كثيراً من النقاط على كثير من الحروف وشخص العديد من الحلول الناجعة والدواء للمسرح وهمومه بخاصة.

ويمضي فنانونا العرب المعاصرون، أعمق من ذلك فيقدمون المطلوب عبر ما يدعى (المسرح السياسي) مسرح الطليعة الشعبي الجماهيري، فيقول الفنان العربي البارز جلال الشرقاوي(المخرج والممثل والمتخصص في المسرح الكوميدي والسياسي) في لقاء مع مجلة ألف باء العدد 996 الصادرة 1987/10/28 بمناسبة مشاركته في مهرجان بابل الدولي بقوله: " المسرح السياسي هو معالجة قضايا أو هموم الإنسان الكبرى مثل قضايا التحرر أو الحرب والسلام وقضايا وهموم الإنسان المعاصر، فلم يعد منفصلاً عن البعد الاقتصادي والبعد

الاجتماعي، لقد تشابكت الأبعاد الثلاثة حتى أصبحت كلاً واحداً. في الماضي كانت الدول الاستعمارية تحتل البلاد بقوة العسكر، الآن لم يتغير الاحتلال، وإنما تغيرت الوسيلة، إنهم لا يلجأون إلى قوة العسكر، وإنما يلجأون إلى قوة الاقتصاد، وعندما أعالج قضية شاب أو شابة متحابين وتقف أمامها مشاكل، هذه عقبات اقتصادية، وأعتبر أن هذا مسرح سياسي، إذ لم يعد هناك بعد منفصل بين السياسة والاقتصاد.

لعل هذا هو المدخل الضروري لحديثنا المباشر عن مسرحية الدكتور ضرغام عبد الله الدباغ " الشمس تشرق على طيبي القلب " فالمسرحية عمل مبدع من إبداعات المسرح السياسي العربي المعاصر، وهي تعالج قضايا الحب والعمل والزواج والدراسة والشبيبة، والواقع والمستقبل، وأبطالها هم بشكل خاص رمز للشبيبة العربية المعاصرة وهمومها هي هموم الشبيبة بخاصة.

وهذه المسرحية تعتبر مواصلة لفعاليات المسرح السياسي العربي المعاصر بعد أن التوى به الدرب حيناً بسبب وضغوط وتأثيرات (الانفتاحيين) من الطبقات والشرائح الطفيلية الكومبرادورية، وبسبب الإحباطات التي توالت في الآونة الأخيرة وخصوصاً كامب ديفيد والصفقات الخيانية، وبسبب التشرذم العربي الراهن الذي أشار إليه معظم الدارسين والمتابعين والمفكرين(كما مر بنا ذلك شيء منه في تضاعيف المقدمة)، وقد احتجنا إلى كل هذا التفصيل الذي نراه ضرورياً للحديث عن ضرورة بعث المسرح السياسي وازدهاره الآن، وضرورة انبثاق أمثال هذه المسرحية، موضوع الدراسة، والخلفية الحياتية الاجتماعية ـ الثقافية التي ظهرت فيها.

2

أفاد المؤلف الدكتور ضرغام الدباغ كثيراً من المسرح البرشتي، ولعل هذه من أهم ضرورات المسرح السياسي المعاصر الذي يلتقي بالضرورة بالمعطيات ودروس وإلهامات المدرسة البرشتية، ويستقي منها الكثير، دون أن يغفل دروس ومعطيات المدارس الأخرى في المسرح السياسي الطليعي.

يقول كولن ولسن في كتابه فن الرواية الذي أسلفنا الإشارة إليه: ص278، " كان برتولد بريشت اجتماعياً ثورياً أراد استخدام الدراسة لأغراض دعائية بيد أنه أدرك أن الدراسة الاجتماعية تعتبر واسطة مملة وغير مرنة لوحدها، وحاولت مسرحياته المبكرة الهرب من ذلك القيد عن طريق اللجوء إلى عناصر التعبيرية، بنوع من التكنيك الحالم قام بتطويره سترندبرغ وروكانيد، ولكنه لم ير الحل المنطقي إلا بعد اقتباس "أوبرا الشحاذ" لكاي لتصبح "أوبرا البنسات الثلاثة"، وتعين على الدراما أن تكف عن محاولاتها المرتبكة لتحقيق الواقعية المطلقة والاعتراف بأنها غير حقيقية، وتعين عليها أن تصبح نوعاً من التمثيل الصامت.

لقد تعثر كاي ب "تأثير الاغتراب " وأعاد برنارد شو اكتشافه في " أنروكليس والأسد " عندما ينتقل الحدث بين الدراسة الاجتماعية الجادة والتمثيل الصامت، ثم وطده برشت الآن وجعله من المبادئ الدرامية، ويجري إخبار الجمهور بأن هذه المسرحية تسلية، وليس من المفروض أن تكون حقيقية، وبعد هذا يغدو في ميسور المؤلف أن يفعل ما يشاء: تقديم الأغاني أو الرقصات أو الحركات البهلوانية والمحاضرات السياسية وحتى مقاطع من الأفلام التسجيلية، ويحقق من

خلال عقد أتفاق بينه وبين الجمهور مرونة من شأنها أن تكون مستحيلة على الدرامي الطبيعي ".

وأنا أعتقد أن المسرح السياسي وفق معطيات المدرسة البرشتية (مع الإفادة من مدرسة بيتر فايس التسجيلية) هو أنسب الطرق للنهوض المسرحي في العالم الثالث عموماً، بما في ذلك الوطن العربي. إن مدارس العبث واللامعقول والتجريد لا تناسب واقعنا ولا يمكن أن تؤدي مهمة النهوض المسرحي لدينا، بل أنها تنقلب إلى وسائل تعويق للوعي الثقافي والفني.

ويقول الدكتور أمير اسكندر في دراسته القيمة (الطليعة في المسرح، مجلة المنار العدد 28 نيسان/1987): فلقد يجوز القول أن العبث أو اللامعقول، والغثيان والعدم والاستلاب والحصر، هي بعض علامات الخريف في حضارة تقترب مع تطور الزمن من نهاية شكلها الرأسمالي التقليدي، ولكن ما علاقتنا نحن ..! إن لم نكن مجرد مقلدين سطحيين، أو جامعي أوراق خريف ثقافي ..! كيف يمكن لوجدان شعب عربي ما زال يبحث عن سبل تحرره ويصنع ضد قاهريه ومستغليه في الخارج والداخل فجره العسير، أن يكون التعبير الفني عنه هو تلك الموسيقى الإلكترونية ذات الإيقاعات البدائية، أو إسقاط الزمن في الرواية أو الدراما أو الضياع العاجز المشلول في غياهيب الفلسفات الظلامية أو دوامات اليأس والإحباط والانتظار العظيم بغير طائل للآتي الذي لا يأتي..

من العبث إذن أن ننقل تراث أو النتاج الروحي لحضارة إلى حضارة أخرى، دون فحص وتأمل وتحليل وربما كان ذلك هو الدرس الحقيقي الذي يمنحه إيانا مثال المسرح الطليعي في آسيا وبعض أقطار أميركا اللاتينية، فقد استطاعت أن تخلق مسرحها الخاص من نبض واقعها ودمه، فاحتضنت شعوبها مسرحها الطليعي المناضل، احتضنته في الحقول والمصانع والمدارس والجامعات، في الساحات العامة والقرى والنجوع البعيدة، وفي قلب الميادين ونواصي الشوارع في المدن سواء بسواء، وكانت النتيجة أن عاش المسرح في قلب الجماهير وبفضلها " .

وهذا بالضبط ما فعله كاتب " الشمس تشرق على طيبي القلب " لقد وجد مسرحه السياسي/ مسرحه الطليعي الشعبي الجماهيري، ووجد طريقه الخاص إليه، دون تبجح وأدعاء، وبعيداً عن الضوضاء والضجيج والغوغائية الانفعالية التي رافقت بعض التجارب في هذا المسرح. إن مسرحيته هي مزيج من المسرح الذهني ـ البرشتي ـ الواقعي الملاحم طواعية برموز الواقع الثوري.

ومع أم مسرحية الكاتب (هذه التي يدور الحديث عنها) هي مسرحيته الثالثة فحسب، إلا أن الكاتب يبدو مقتدراً في الفن المسرحي، وكأنه كاتب مسرحي محترف، مع أنه يشير غير مرة في المقدمة، أنه كاتب سياسي (أصلاً) يهوى الكتابة المسرحية، وفي اعتقادي أن كلية الثقافة السياسية ـ الاجتماعية لدى الكاتب متلاحمة بشكل جدلي، كما أن إفادته من المسرح السياسي البرشتي في ألمانيا الديمقراطية (التي أكمل فيها الكاتب الدكتوراه في العلوم السياسية) قد أغنت خبراته المسرحية كثيراً فجاء عطاؤه المسرحي ناضجاً ومكتهلاً يرفد أساسا إيديولوجيته السياسية ويستقي منها

3

إن الفصل الأول قصير وهو ينبسط في مشهدين:

يضم المشهد الأول بطلي المسرحية الأساسيين(أحمد وآمال) ويضيف المشهد الثاني إلى هذين البطلين شخوص أخرى هما (السكرانان الأول والثاني). والمهم أن الكاتب يلاحم بين تصرفات وأفكار كل هذه الشخوص وعلى نحو جدي وذكي، فتأتي حصيلة الفصل الأول فكرياً على صعيد المضمون ، مقنعة، غنية واعدة، مجتهدة للعطاء المتوقع لأحداث وشخوص الفصلين الآخرين، متلاحمة على نحو وثيق، تلاحم المقدمة بالخاتمة والسبب بالنتيجة.

يوظف الكاتب مشهد السكارى عنصراً أساسيا في البناء الفني، فما يعجز الصاحون عن قوله (وما هم بعاجزين) يقوله السكارى. والحق أن توظيف مشاهد السكر في المسرحيات والقصص والروايات والإبداع الفني عموماً، هو أمر طالما لجأ إليه الكتاب والفنانون باعتباره يوظف العقلين(الواعي والباطني) ويسهم في تكامل اللوحة، ويتمم جوانبها كافة، وطالما كان السكارى والمجانين والبهاليل(الحكماء) في تراثنا العربي والتراث الإنساني عامة طريقاً للتصريح بالحقيقة التي يخشاها الطغاة والجلادون وجلاوزة الإمبريالية، وحسبنا الإشارة إلى ثراث دستويفسكي في الأدب العالمي، وتراث يوسف العاني في مسرحنا العراقي المعاصر، ونشير إلى ذلك مثلاً لا حصراً بالطبع.

ماذا يثير الفصل الأول ..؟

إنه يقدم لنا تفاعلية خصبة لثنائيات حية ديناميكية، موارَة. أول هذه الثنائيات المتفاعلة المتحاورة على نحو خلاق، هي ثنائية القرية والمدينة، وهناك ثنائية الحلم واليقظة، والكتاب والعمل، والنظرية والتطبيق (والثنائيات الأخيرة هنا إنما هي صدى وامتداد لثنائية الحلم واليقظة العاملة).

يمثل أحمد القرية، وتمثل البطلة آمال المدينة، وينتصر الكاتب طبعاً للتفكير العلمي، ولنقاء القرية وثقافة المدينة، فليست المدينة كلها شر، كما ليست القرية كلها خيراً، خذ مثلاً هذا المشهد (ختام المشهد الأول للفصل الأول):

ـ آمال: هل ستبقى في المدينة ..؟
ـ أحمد: يبدو أنها أوقعتني في شباكها (يضحك)
ـ آمال: (بلهجة عتاب) وهل أنت غاضب لأنك سقطت في شباكها ..
ـ أحمد: لا .. لا .. فتلك حتمية الأشياء، القرية تضخ الرجال، لتلتهمهم المدينة، كأن القرية مفرخة للبشر، يا إلهي كم تلتهم المدينة من بشر وطعام، وكم هي هائلة أحشاءها بحركتها وإيقاعها الصاخب

(أو هذا المقطع ضمن المشهد الأول أيضاً)

ـ أمال: .... أنظر كم صرفت من الوقت لتقنعني حتى اقتنعت فعلاً بأن علاقات القرية أفضل من مجتمع المدينة، إن مجتمع القرية أكثر نقاء و .. و ...
ـ أحمد: كنت أريد أن أقول لك أن أهل الريف ليسوا أوغاد كأهل المدينة، أردت بذلك أن أقول لك أن مجتمع المدينة مزيف، باطل الأباطيل ..
ـ آمال: ولكنك لست راضياً عن قريتك الفاضلة، ولا عن شمسها التي تسطع يومياً ..
ـ أحمد: لأنها لا تحل مشاكلي ..
ـ آمال: (مقاطعة) ولكن بشرها طيبون أنقياء ..

ـ أحمد: (مقاطعاً) أنهم سذج إلى حد البلاهة، وإنهم إذ لا يستطيعون فعل الشر، فهم غير قادرين على الخير، إنهم عاجزون عن الخير والشر معاً ..

إن أحمد يعلن أن العفوية والبراءة والنقاء في جانب القرية، أما الدهاء والمكائد والمكر (تعقيدات الحضارة) فهو في جانب المدينة، وهو بينهما (بالأحرى هو وفتاته) بين المطرقة والسندان، وبالطبع فالمسألة لا تقتصر على ذلك، فالغربة والاغتراب هما رفيقا المدينة وعلامتهما الثابتتان(وهذه إشارة يمكن تعميمها على الحضارة الصناعية والآلية ومجتمع المدن المعاصرة في الشرق والغرب):
ـ أحمد: هل من غريب غيرنا في المدينة ..؟
ـ آمال: الكل غرباء، لقد فقد الناس تضامنهم

إن القرية تغير قناعاتها بسرعة، وتنتقل من الطرف الأقصى إلى الطرف الأقصى بسرعة، وهي قدرية، غيبية، عفوية(وقد سبق وأن فصلت ذلك في دراستي عن السياب ودستويفسكي: في مجلة قضايا عربية 1976 والمنشورة في كتابي" دراسات أدبية " المكتبة العالمية: المؤسسة العربية للدراسات والنشر 1985).
والبطل يعلن بثقة وتبرر، أنه يحترم المدينة ويخافها في الوقت ذاته،

ـ أحمد: الأمر ليس كراهية أو أعجاب، المسألة أبعد من ذلك. المدينة جهاز معقد ليس من السهولة التعامل معه، أنظري، أنها آلة موسيقية معقدة يصعب العزف عليها، وموسيقى القرية بسيطة ساذجة، أنني أحترم المدينة وأخافها ..

ولكن أحمد ذاته يكتهل بالحكمة أخيراً بقوله: " الأمر لا يتحمل الانبهار كلياً أو الشجب كلياً " .

ويأتي المشهد الثاني الذي يقدم السكارى لأول مرة في المسرحية ليضيف مزيداً من الخصب إلى جدل الحقيقة والخرافة والعلم والعمل واليقظة والحلم، إن السكران الثاني يبدو أكثر شراسة واقتحاماً من الأول:

ـ الأول: لماذا أصحو ؟ أعطني سبباً وجيهاً لذلك ؟
ـ الثاني: أحلم .. أحلم .. صدقني الحلم أفضل
ـ الأول: أني أصدقك ولكن لماذا أحلم ..؟
ـ الثاني: لأن اليقظة تثير مشاكل عديدة

إن توظيف السكر والحلم في هذا المشهد وفي المسرحية عموماً يأتي في مكانه تماماً، ولا يتم تعسفاً أو حشراً ميكانيكياً، إن هذا (العبث) هو الجواب الساخر الذي يقدمه الإنسان في وجه المشاكل وصانعيها:

ـ الثاني: طبعاً .. فإذا سرت مع صديقتك علناً في الشارع فهذه مشكلة، وإذا أحببتها فهذه مشكلة، وإذا أردت أن تتزوجها فهذه مجموعة مشاكل .. أحلم يا صديقي أحلم/ فإنك مجاناً تحصل على ما تريد ..!

الحب مشكلة والزواج مشكلة، وإنشاء عائلة مشكلة، وكل هذه المشاكل تخلقها المدينة والحضارة والأنظمة الظالمة المتخلفة، والجواب بالسخرية هو بعض ما توسل به أكابر الكتاب

والفنانين(الرصافي: ناموا ولا تستيقظوا ما فاز إلا النوَم)، (الجواهري: نامي جياع الشعب نامي حرستك آلهة الطعام) نذكر ذلك كمثال على عدد كبير في هذا الصدد لكتاب عرب وعالميين.

وهذا المشهد أيضاً يقدم تلاحمية للعلم : أن الطغاة يكرهون العقل وعطاؤه.

ـ الأول: أعني أن هناك موضوعات تستلزم زج قواك العقلية لفهمها ..
ـ الثاني: وإذا زججت عقلي ماذا يحدث ..؟ هل تعلم ماذا يحدث ..؟

إن السكرانيين يقولان الكثير عبر السكر والحلم والاسترخاء، وكأنهما بالتالي صاحيان، إنهما يخوضان الحياة ومعاركها كل بطريقته ولكنهما يتكاملان وإن تقاطعا:

ـ الثاني: .. أنا لا أقول لك شيئاً من جيبي .... أنت غارق في كتبك، وأنا جرحني الواقع والتجربة ..!

ويوظف الكاتب وسيلة أخرى للبناء الفني / الفكري للمسرحية، هي الفلكلور (على طريقة المسرح البرشتي بخاصة) إن الأغاني والأمثال والحكم والمأثورات الشعبية تتناثر في العمارة الفنية للمسرحية ونسيجها الجمالي، لا بأعتبارها زخرفاً، بل بأعتبارها لبنة أساسية في البناء وعنصراً لا بد منه، خذ مثلاً لا حصراً لهذا المقطع الحواري بين السكرانيين(وهو أول استخدام للأغنية الشعبية والفلكلور):
ـ الثاني: اسمع يا صاح .. أنت تصح عليك أغنية الأطفال القديمة: (يغني)
يا خشيبة نودي نودي
وديني لبيت جدودي

وتظل السخرية سلاحاً بليغاً في الإصابة والتسديد (هل الحلم أيضاً ممنوع ..؟)، (طائر في الحلم أفضل من الذي لا يحقق شيئاً .. قل لي ماذا نفعتك كتبك ..؟) ويأتي كل هذا " وليس عفواً " على لسان السكران الثاني وأكاد أقول " البهلول الحكيم الثاني ..! ".

* * *

ويقدم المشهد الثاني المجابهة الأولى للسكارى بالبطلين (أحمد وآمال) ولكنها لا تأتي مباشرة، بل مواربة (إن صح التعبير) لكنها غنية وذات علاقة جدلية بالمجابهات اللاحقة في الفصول التالية.

يأتي أحمد وآمال ليعلن أحمد (الناس نيام)، إن المقولة ليست عبثية وليست عفوية، بل لها مراميها البعيدة، لكنها تأتي طبيعية لا اعتباطية، ومثلها مقولة (الحصار)
:
ـ أحمد: يا آمال ألا ترين أننا محاصرون جميعاً داخل أنفسنا ..

أنها تضيف لمقولة الغربة والاغتراب على لسان البطل الأساسي نفسه.
إن الحوارية هنا خصبة، فالصدام الأساسي متوافر المقومات، وإن البطلين متمردان(التمرد الرومانسي ـ الواقع الثوري) فحين تعلن آمال:
سنعمل أنا وأنت للتغلب على المشاكل
يجيبها أحمد في الحال بصوت الواقع:
سيتصدى لنا أبوك وأهلك وعمك والمجتمع الذي لا يفهم طيبة القلب ومشاريع الحياة .

إن تعليق السكارى(وهو عنصر أساسي في المجابهة) فإنه يكون أبلغ على لسان السكران الثاني: أنت رأيت صورة جانبية، وأنا رأيت كل الصورة ... إن الصورة تضم حزناً وقهراً، واستبداد العائلة: الأب والأم والعم .. أنها قوانين الأسرة. ... أنت تركز على إرادتها الذاتية وتهمل الصعوبات الموضوعية .. أراك تخالف ما قرأـ في كتبك ..؟ .. لا تحل مشكلة ما بوعدك الشخصي لها ، لا بد من توفير العربة التي تنقلك إلى جنتك ...

وتضل السخرية كما هو العهد دائماً سلاح الحنكة الحياتية، رغم أنها تأتي على لسان سكران ..! إنه السكران الثاني (دائماً) بسخريته البليغة معلقاً على ما سمع وما رأى وعلى ما جرى ويجري: أليس الإيمان بالخرافات أفضل من نطح الحائط ..؟
ومرة أخرى يأتي الفلكلور، عبر الأغنية الشعبية متمماً البناء الفني في العمارة المسرحية في ختام المشهد الثاني للفصل الأول:
السكران الثاني ... يضحك ... لا ... لا ... لا تكذبي، إني رأيتكما معاً ...!

تسدل الستارة ويغادر السكرانان المسرح .. ويغادر معهما صوت معدل للحقيقة، وصورة منكسرة للحكمة، فإن مقولات السكر (بالشكل الذي أبرزه الكاتب واستخدمه) إنما هي الوجه الآخر للعملة، أو للميدالية، أو للقمر (كما يقال).

4

نحن الآن في رحاب الفصل الثاني للمسرحية ... فماذا سنرى وماذا سنسمع ..؟
إن الفصل الثاني الذي يتكون من مشهدين، هو الآخر (كالفصل الأول) غني بانتقالاته وتنويعاته ووسائله البنائية، وهنا نجد السخرية والتهكم واستخدام الفلكلور (أغني ولأمثال وحكم ومأثورات وأساطير وحكايات) وإشارات غنية إلى التاريخ والتراث القديم، ومجابهات حادة مع الواقع الراهن (الذي يصح على معظم الأقطار العربية، وأقطار العالم الثالث أيضا)، والتصريح بالحقيقة على مستويات مختلفة (صخب اليقظة، وتعليقات السكارى الجانبية، ومستوى ما بين الحلم واليقظة.

ويفتتح المشهد الأول لهذا الفصل، لفيف من الشبان في نادي الكلية الجامعية، ويقحمنا المشهد في ميكانزم الدراسة الجامعية والعلم النظري، عبر محاضرات (أستاذ الأيديولوجيا)، إن الواقع يلتحم بالرمز بقوة: فأستاذ الأيديولوجيا هذا يرمز اللقانة واليمين في تدريس العلوم والعلاقات مع الطلبة والحياة الجامعية والعلمية عموماً، وأحد الطلبة(فارس) هو نموذج للانتهازي والعلاقات الانتهازية في الحياة الجامعية والحياة والسلوك البشري عامة، وثمة طالب ثان (سعد) هو نموذج الطالب الثوري الذي يصطلح عليه اليمين (المتطرف) والمباشر في علاقاته وطريقة فهمه ونقاشه، فهم حدَي لا يقبل (الوسط) أو (المهادنة) أو أنصاف الحلول، أما (أحمد) البطل الرئيسي فهو نموذج الثوري الحكيم، وثمة شخصية نسائية جديدة (ساهرة) التي تحب سعداً بذكاء وتبصر (كعلاقة أحمد بآمال).

إن هذا الفصل(وهو الأوسط في فصول المسرحية) يحاكم المدينة (والحضارة البورجوازية عبرها) ويدينها مستخدماً شتى الوسائل: اليقظة والحلم، العلم والعمل، الحب والكراهية، إضافة

إلى وسائل المسرحية المعتادة في التهكم والسخرية والتجريح والمفارقة والتباين والتضاد، وربط الماضي بالحاضر والمستقبل جدلياً.
إن نموذج الانتهازي ممثلاً في فارس الذي يرمز أيضاً للواقعية البراغماتية والميكافيلية المرضية، والمصلحية عموماً:

ـ فارس: طالما أن المادة مطلوبة للامتحانات، فأنا أحفظ الدرس كالنشيد ..
ـ سعد: وهل برأيك هذه طريقة مثلى في تلقي العلم ..؟
ـ فارس: يا صديقي على كل حال فأنها أفضل من الرسوب في السنة النهائية
ـ سعد: يعني أنك وجدت لها حلاً انتهازيا..؟

أو هذا المقطع الحواري بين فارس وسعد أيضاً في موضع آخر من المشهد:

ـ فارس: طيب قل لي أين الشطارة في أن أرسب وأضيع سنة كاملة، بكامل مصروفاتها، ثم لا تنسى أن تخرجك يتأخر سنة، بكل ما يعني ذلك من رواتب وعلاوات وترفيعات واحتمال الحصول على إيفادات ..!

وتأتي الأغنية (سلاح الفلكلور الحاد)، هنا إصابة بليغة لتسهم بقوة في بناء النسيج المسرحي وجمالياته الكفاحية .. فحين يقدم فارس نموذجاً لمحاضرة أستاذ الأيديولوجيا (وهو نموذج كاريكاتوري ساخر هو الآخر) يقوم سعد بالنقر على المنضدة ويردد الأصدقاء معه أغنية: ما اشرب الشاي... اشرب كازوزة أنا ....!

وحين يشير فارس إلى الأهمية العملية للنجاح (والخسائر والمصروفات والعلاوات والإيفادات المتوقعة (كما أسلفنا في الاقتباس) فإن سعداً يجيبه (في مفارقة حادة، وتضاد بليغ، موظفاً الفلكلور سلاحاً قوياً للمحاججة فيشير إلى بيت الشعر المشهور:

فقل لمن يدعي العلم فلسفة حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء

فيغني كالعادة ساخراً
ـ سعد: يا ويلاه .. يا ويلاه .. يا ويلكم يا معشر الطلاب، فقد عرفتم شيئاً وغابت عنكم أشياء .. يا إلهي من منكم أجرى مثل هذه الحسابات المعقدة ... يدق على المنضدة ويغني ساخراً : شوف القسوة بتعمل أيه ..!

وأكثر من ذلك، يربط الحديث بالتاريخ والتراث والأسطورة أيضاً:

ـ سعد: اسمع يا عمي أسمع ... يا سليمان الحكيم .. أقسم لك بأنك خسرت شيئاً يعادل كل ما قرأت في مجلتك هذه ..
ويهب طالب آخر(بلال) لدعم سعد في السخرية من الانتهازي والانتهازية:
ـ بلال: (بتهكم لفارس) للأنصاف يا فارس، إنك بطل وزنك وكل الأوزان في قفز الموانع ..
ـ سعد: أي موانع، أي ساحه وميدان، أنه بطل الأكروباتيك وسيصبح نجماً في السيرك ..

تستمر المحاكمة .. أنها محاكمة المدينة وانتهازيتها وزيفها وبراغماتيتها ولقانتها، فثمة اقتراح بين الزملاء بمشاهدة مسرحية (حريق مدينة بومبي) ويخرج أحمد من مشاهدة المسرحية حزيناً، لكن فارساً (محامي المدينة ونموذج البراغماتية واللقانة) يسخر من المسرحية والمسرح والثقافة عموماً، فليس لديه إلا المواد الدراسية وحفظها للنجاح وولوج عالم حياة الوظيفة(الرخية) على

طريقة الموظفين المداهنين المتملقين الذين ألفوا عقولهم وشخصياتهم، لنسمع هذا الحوار البليغ بدلالته:

ـ فارس: أنها مسرحية والسلام .. أنها مؤلفة، والتأليف خيال، وكل خيال لا يستحق الجدية..
ـ سعد: لكثرة ما حفظت من دروس الأيديولوجيا السخيفة صرت لا تميز بين العمل الواقعي والعمل الخيالي ..

وتتواصل المحكمة الشعبية، في هيئة محلفين شعبيين ديمقراطية، علناً:

ـ سعد: إذن فأنك لن تستطيع أن تفهمها، وسأقول لك لماذا .. لأنك ملتصق بذاتك التصاقا شديداً، يصعب عليك فهم ما يجري حولك، لشد ما أنت منشغل بنفسك ..!
ـ نبيل: عندما تهدر الأنا في نفس الإنسان، فإن هديرها يتحول إلى صخب، يفقده القدرة على تميز الأصوات الأخرى ..!

إن (نبيلاً) وهو شخصية حديةَ أخرى مثل (سعد) وتعليقاته جارحة (للحشمة الانتهازية والتواضع البورجوازي):

ـ نبيل: إذن فقد حكم علينا هذه الليلة بالشغال الشاقة بمشاهدة التلفزيون ..!
ويدق أحمد جرس الإنذار، بحنكة من رأي الكثير في دهاليز المدينة:

ـ أحمد: (مقاطعاً) على مهلكم .. أولاً نحن جالسون في محل عام لا يجوز فيه التحدث بصوت عال، وثانياً هذه لن تحل مشكلة ...!

إن أكثرية الزملاء بجانب أحمد وسعد، وليس سوى فارس مفحماً في الزاوية الحرجة يدافع (بغباء عن مصلحياته وعن الواقع كما هو، وعن مقولة (ليس بالإمكان أحسن مما كان)، والمصالحة مع الواقع الغبي، أما الزملاء (وهم هنا رمز للجماهير وللعقل المستنير، وللثقافة، والأوساط الجامعية المثقفة بحق، وللعلم عموماً) فهم يظلون يحاكمون المدينة البورجوازية:

ـ بلال: الآن دعونا لنفكر بمشروع اليوم .. أقرأ لنا يا أحمد ماذا تقدم المدينة اليوم ..؟
ـ أحمد: (يفتح الصحيفة) السينمات يا أخوان تقدم ، سأقرأ لكم عناوين الأفلام: عودة المسدس المنتقم، قتال في هونغ كونغ، الفارس الملثم، سرقة بنك المدينة ..

هذا هو عطاء المدينة التي تحكمها البورجوازية الكومبرادورية والشرائح الطفيلية الانفتاحية المرتبطة بالإمبريالية الأمريكية بخاصة، والبنك الدولي ومؤسسات التعمير والصيرفة المالية الغربية، وهو شيء يصح قوله على معظم مدن العالم الثالث وليس العالم العربي.
وتأتي الحكمة في ثنايا هذا المشهد متبصرة، مقنعة، مستقرئة، متأنية. ففي ختام (الجدل الجامعي) يقول سعد ملخصاً :

ـ سعد: فعلاً هذا شيء يغيض إلى درجة الانفجار، أن اشعر بأن رأي ليس مهماً، ولكن مطلوب مني أن أدرس وأن أردد كالببغاء

هذه هي اللقانة، وتلكم هي الببغاوية والقردية، الحصيلة المركبة للتطبيقات(المبهرجة بالثقافة زوراً) لمنهجية التدريس على الطريقة الغربية ..!

وثمة حكم أخرى، تأتي على لسان شخصية نسائية (الطالبة ساهرة، زميلة آمال وشريكتها في المعاناة) ..

ـ ساهرة: لا فائدة من مناقشة أمر يقع خارج قناعاتنا الشخصية..

فيما تنطلق أحكام سعد، جدلية في تلاحمها وطبيعتها: (الحلول التوفيقية تلاقي الاستحسان دائماً، والحقيقة السافرة أفضل من التلفيق المهذب، والحقيقة لا تكون وقحة عندما تعري الوقار المزيف.

وثمة سخرية حادة تسربل وقائع هذا المشهد وبنية حواره، فالإشارة إلى حاصل التصويت ساخرة تجاه جميع الأنظمة التي تفوز (مشاريعها) بالتزكية ..
ـ سعد: حاصل الكلام 99،9،9،9،9،9 إلى آخره ...!

وسعد يقسم على طريقة فرسان القرون الوسطى بالوفاء للحق والصدق في وقت ندر فيه الصدق وقائلوه، وهو الوقت الذي يؤطر للمشهد وقائعه.....!

إن المشهد الثاني للفصل الثاني، أكثر إيغالاً في السخرية والمفارقة والتضاد، وهو بالتالي أكثر عنفاً وحدة، وهو يوظف الفلكلور بكثرة، حين يكون الفلكلور هو المادة الأقوى في البناء، والأنسب في العمارة.

أنه يقدم نموذجاً لحياة الطلبة في الأقسام الداخلية، ها هي الشلة الخيرة تجتمع، وتلتقي بشخصيات جديدة (باسل) ونسمع فصولاً أخرى لمحاكمة المدينة والواقع المهترئ، فهذا مثلاً حكم على حالة معينة وتفسير ثوري له:

ـ باسل: كنت في المدينة أحاول أن أجد فلماً جيداً، ولكن ذلك كان عبثاً، الأفلام سخيفة، ولكن العجيب أن الإقبال عليها شديد من الجمهور ..!

ـ سعد: ولم لا ..؟ فقد فسد ذوق الكثيرين ..

وهناك حالة أخرى، واقعة أخرى لما يجري في المدينة، وهو شيء شبيه بالأفلام، بل قل هو حصيلة ترويج لهذه الأفلام ونشرها:

ـ باسل: نعم .. معركة نشبت، غذ ترجل فجأة ثلاثة شبان من سيارتهم وانهالوا ضرباً على صبية فقراء يبيعون الموالح على قارعة الطريق حتى أدموهم ثم عادوا يقهقهون إلى سيارتهم وانطلقوا بها كالصاروخ ..

ـ أحمد: والناس ماذا كانوا يفعلون ؟

ـ باسل: لا شيء، البعض منهم كانوا يتفرجون على السيارة، ويتحازرون ماركتها، والبعض الآخر كان يتطلعون إلى فتاة حسناء كانت جالسة في سيارة الشبان، والبعض الآخر كانوا يمرون دون اكتراث وكأن شيئاً لم يكن..

ـ سعد: هكذا ببساطة ..؟

ـ سعد: نعم هكذا ببساطة

ـ باسل: نعم .. ومرت فتاة غمزت لأحد الشبان الثلاثة وقالت لصديقتها: يجنن ..!

وبالطبع وبالضرورة كما يقال، فإن مثل هذه اللامبالاة ومثل هذه الأجواء والحالات والوقائع(المقرفة على حد قول باسل) لابد أن تدفع الزملاء إلى الرد بسخرية على الواقع ومعطياته الجرمية والعبث اللامعقول، فحين يناول الزملاء العشاء لباسل، يشفعون المناولة بالتعليق الساخر على وجبة اليوم وزاده الروحي في ظل رحمة "المدينة البورجوازية الظالمة:

ـ سعد: (مقاطعاً) يا باسل هل تشتهي يا صديقي العزيز .. قل لي أيها الإنسان الطيب .. ماذا تشتهي .. السينمات سخافة لوجيا والفلسفة هراءلوجيا .. هل عرفت ماذا سأقدم لك ..؟ أنها الأكلة اللذيذة التي تناسبنا: فاصوليوجين ..!

ـ باسل: وما هذه الفاصوليوجين .؟
ـ سعد: أنها فاصوليا .. على وزن أوكسجين ..!

ومدير القسم الداخلي يخضع للمحاكمة أيضاً، وهو يرتبط (بباسل) الذي يقدمه على حقيقته:
ـ باسل: أن مدير الداخلي لا يطاق فعلاً، إذا جئت إلى القسم مبكراً، يغمز بخبث ويقول: أنت اليوم وحيد .. اين أصدقاؤك .ز وإذا تأخرت يقرعني بأني سأرسب السنة لا محالة ..! أما إذا عدت مع صديق ليجلس في غرفتي فإنه يسترق السمع من وراء الباب وينظر من ثقب المفتاح، إن هذا المدير هو مثال للموظف البيروقراطي، وبيدق أجير في الماكنة البورجوازية ..

ويمتلئ المشهد بلوحات السخرية والإشارات إلى التراث والفلكلور، والأسطورة بخاصة، فيكون التذكير بسليمان الحكيم، وتكون السخرية من مادة الإيديولوجيا، وتشبيه سعد أنتشار البراكين بانتشار حب الشباب في وجوه المراهقين، ويقدم اليوم نموذجاً للهراء كما تسميه الشلة تعبيراً عن اللقانة والببغاوية في مادة الإيديولوجيا، فيقول سعد مثلاً: ومع أن الفئران حيوانات حقيرة، والبلابل طيور مغردة، والببغاوات غبية تعيش ماساة داخلية دفينة، والحمار عبقري..!

إنه العبث الذكي المستبصر، والسخرية من صانعي الظلام والزيف والدجل والشعوذة (باسم العلم والعلم منهم براء).

وهكذا فمحاكمة الدينة إلى محاكمة مدير القسم الداخلي، ومحاكمة شبان المدينة الضالين، وأفلامها وجرائمها، وتتصل بتعليق السكارى الذين أكتسب أحدهم لقبه(ملك العلم) فيما أبقى للثاني لقب (ملك الفهم)، ويفطن سعد إلى حقيقتهما وحقيقة وجودهما فيقول، يبدو أن هؤلاء ليسوا بسكارى .. يبدو لي أن نار التجربة قد حرقتهم إلى حد الشواء ..!!

ويكون القرار حكيماً في حدود ما تسمح به تحربة أحمد واستبصاراته ... نحن فلاحون .. جئنا إلى المدينة لا نحمل معنا سوى طيبة قلوبنا، وتعلمنا من المدينة أشياء كثيرة، ودرسنا العلم، ولا بد لنا أن نمزج بين علم المدينة وذكائها وطيبة قلب الفلاح وصبره ..

5

إنه الفصل الثالث والأخير .. الفصل (المفتاح) الخاتمة .. حل لمشكلات المسرحية وأبطالها بالشكل الذي صوره الكاتب وعرضه لنا، فهو لم يطرح مشكلات دون يجد أفق الحل، وقد أندغمت الآمال الشخصية لهم بالإشكاليات العامة التي يعاني منه المجتمع، حتى لتكاد تلمس أن الأفراد هم في الواقع كنهة وطبيعة أطراف الأزمة العامة ...

الشخوص ذات الشخوص، وما من مزيد، الجديد في هذا الفصل التنويع الحاد في الانتقالات والأجواء والحالات وزوايا التقاط العدسة والمرآة التي تعكس الحقيقة وروح الشعب وجوهره.

في المشهد الأول، يستمر الجدل في كيفية (التمتع) ب (ثقافة المدينة) فهناك معرض للفن، وهناك أمسية شعرية، وهناك السكارى(أو السكرانان بتعبير أدق) في (مداخلة) سريالية إذا جاز التعبير.

كما هناك أخيراً، نقلة نوعية لأصوات في الظلام، وكل ذلك يلتحم ويتداخل ويتراكب ويترافد في تفاعلية، كلية وشاملة، تتقدم خطوات أبعد نحو الحسم، نحو الحل: محاكمة المدينة وإدانتها وتبني طريق الخلاص، إلا أن المشهد الأول لا يكفي لذلك ومن هنا فإن الكاتب رفده بمشهدين آخرين يجسمان، برؤية الكاتب وزاوية تصويره، المشكلات التي عرضها مسرحياً عبر مسرحيته موضوع الدراسة.

يتضح المشهد الأول بثقافة الكاتب العميقة، ومتابعاته الذكية لإيقاع العصر، وأتجاه السهم فيه، إن الكاتب الذي يغادر الناس والحقيقة، يغادره فنه ويغادره سر خلوده، إن سر عظمة هرقل، هي في التصاق قدميه بالأرض، وسر عظمة الكاتب الكبير هو عمق التصاق قدميه بأرض الحقيقة، وروح الشعب، ومنطق التاريخ.

يفسر لنا الكاتب الإحباط الذي تعرض له الزملاء في مشاهد المعرض، ومتابعة الأمسية الشعرية، يفسره بتغير المزاج، وتغير الأخلاق أساسا، وأنانية بعض الكتاب والفنانين، ويضرب المثل لذلك بجون شتاينبك الكاتب الكبير، صاحب أفول القمر(رواية عن مقاومة الفاشية) و (رجال وفئران) الرواية الإنسانية التي كان لي شرف ترجمتها من الإنكليزية ونشرتها مكتبة دار الحياة / بيروت 1962، شتاينبك الذي خسر الجولة أخيراً بانتصاره للإمبريالية الأمريكية في حربها الظالمة القذرة ضد الشعب الفيتنامي الباسل.

ليسمح لي القارئ الكريم إيراد هذه الحوارية بنصها:

ـ آمال: إذن فإن الانحراف في المزاج الفني قابل للانحدار..
ـ سعد: قبل انحدار المزاج، تنحدر الأخلاق..
ـ أحمد: ولماذا الأخلاق..؟ إن مصالح الفرد تتغير، وحين تتغير، فإن أساليب الكتاب المعبرة عنها هي الأخرى تتغير ..
ـ ساهرة: أنت تريد أن تقول أن مصالحهم أصبحت أنانية .. ضيقة
ـ آمال: ويقال نفس الشيء عن الشعر وعن كل عمل فني.. أليس كذلك ..؟
ـ سعد: بالتأكيد، وهذا في الواقع ليس شيئاً نادراً، فقد كان جون شتاينبك كاتباً عظيماً يكتب للناس، ولكنه حكم على نفسه بالتفاهة، إذ أنقلب على حين غرة .. ومات مغموراً ..

ـ آمال: ولكن كيف يكتب شاعر عظيم .. تفاهات ..
ـ أحمد: عندما ينقلب هو بنفسه إلى تافه .. وينفصل عن الجوهر الإنساني في شعره
ـ سعد: هذا صحيح تماماً، فقد كتب أندريه جيد مرة: حتى الشجاعة التي هي في مقدمة الفضائل الإنسانية، تصبح وحشية إذا تخلت عن المضمون الإنساني، فالحيوانات المفترسة لا تنقصها الشجاعة، ولكنها وحشية وتتبع شريعة الغاب.

وينضح هذا المشهد بالإيمان بالعلم وبالتفاؤل التاريخي(وهو لم يفارق الكاتب منذ مسرحيته الأولى)، غذ يقول أحمد:
ـ أحمد: إن مجرد تسليم الإنسان بجدول الضرب هو بداية الإيمان بالعلم، وكذلك قوانين الفيزياء، أنا أريد أن أقول لك، لا داعي للتشاؤم .. كن عنصر خير

إن أحمد بطل المسرحية الرئيس، ينصح بالتفاؤل والمرونة والواقعية في الرؤية العلمية، دون تطرف أو إغراق في الخيال فتطرف اليسار كتطرف اليمين، كلاهما خاطئ وهما يلتقيان في الجوهر رغم فرق التسمية ..!
إن سعداً لا يستطيع أن يتكيف التكيف الواقعي الثوري، ولكن أحمد ينصحه بالصمود والثبات وخوص المعارك الصعبة:

ـ أحمد: المسألة لا تبدأ هنا ولا تنتهي هناك .. غداً سوف تخوض معترك العمل وسترى وتواجه عقليات تنتمي إلى القرون الماضية .. فماذا ستفعل ..؟ هل ستفصَل وضعاً على مزاجك ..؟

ومع ذلك فإن أحمد يوافق سعداً حين يقول هذه الحقيقة: (أن نعيشه شيء، وأن نتعايش معه شيء آخر، كما أن هناك فرقاً بين الرزق والارتزاق).

وأحمد تحنكه الحكمة، فيحاول أن يوجه الآخرين لا على طريقة (وعاظ السلاطين) بل بمد يد العون النزيه الأخوي الإنساني: (دعني يا سعد .. أننا نخوض معركتين: تدور رحى الأولى مع ذاتنا، والأخرى مع محيطنا الخارجي، والكثير من المفاهيم هي واضحة بالنسبة لك، ولكنها غارقة في ضباب كثيف، أو مشكوك بها، أو لا شرعية بالنسبة للآخرين). ويوجه أحمد، بطل المسرحية، سعداً والآخرين إلى المقاومة في لوحة من الكلام الشعري:

تطول في ليل المخلص عذابات الظهيرة
وتطرح الأشياء تفاصيل تبدو صغيرة ..
مشقق الشفتين .. عار .. أعزل
مقيداً في حدقة الحقيقة
تحلق غربان الموت فوق هامته
وتطوف حوله ثعالب وأباطيل
بالسيف المكسور يقاوم
بالجسد المتعوب يقاوم
بالروح التي لا تعرف إلا المقاومة
يقاوم ....

أما لازمة أحمد فتقول بالمقاومة ولا شيء إلا المقاومة، وهو يكسب معارك الجدل بحجته الواقعية وعلمه وقدوته الثورية:

ـ آمال: أني أضم سيفي إلى سيفك .. لنقاوم
ـ أحمد: ساهرة .. تطلعي إلى الغد، ثقي بالمستقبل، وأنت يا سعد ..!
ـ سعد: إني أثق بالحياة وبالناس الشرفاء ..
ـ ساهرة: أنا أيضاً أثق بالغد، ولا بد أنه سيكون أكثر أنصافاً

ينعطف بنا المشهد ليدخل السكرانان، شاهدين على العصر وعلى المعركة، عبر أحدى لوحاتها الدالة، ويواصل أحمد طريقه نحو الحل بعد التشخيص الواقعي الثوري الصائب .. إنه الاتحاد للعمل:

ـ أحمد: دعنا ننفلت من كل هذا ..
ـ سعد: وكيف ..؟
ـ أحمد: أن نتحد بوجه الثعالب والأباطيل ..
ـ سعد: بسيوفنا المكسورة ..؟
ـ أحمد: نعم بسيوفنا المكسورة، مسلحين بطيبة القلب التي لن نتخلى عنها، بالثقة في المستقبل والحياة والغد ..

حسناً ... ماذا يقول الحلم ..؟ ماذا سيقول البهلولان (السكرانان) ؟ وكيف يتلاحم الحل بين صوت العقل الواعي والعقل الباطن ؟ يلاحظ السكران الثاني(الأكثر واقعية واقتحاماً إذا جاز التعبير) إن طيبة القلب تجمع الجميع، إلا أن أحمد أكثرهم واقعية، غير أن طيبة القلب لا تكفي، بل أنها مرض خطير، ويلاحظ أكثر من ذلك، أنهم خاسرون على الصعيد الشخصي، وهو يعني بذلك أنهم مضحون باستمرار. غير أن هذا السكران يقول مقولاته هذه بلغة السكارى ضارباً المثل بنفسه، فإنه هو نفسه (طيب القلب) وقد شبع عذاباً وخسارة، دون أن يتعلم من التجربة، والمحصلة النهائية لديه أنه بات يفضل السكر الدائم والحلم الدائم على الكفاح من أجل الحقيقة ..!

إن الانتقال إلى الظلام، وحوار الصوتين، هو تغير في الشكل والصياغة والجو والتكنيك(إن صح التعبير) ولكنه مواصلة لذات الجوهر وذات المسألة، فهنا نسمع (الناس نيام) وهي مقولة سمعناها في ثنايا المشهد الثاني للفصل الأول(على لسان أحمد مخاطباً آمال) وهذه المقولة (على بساطتها الظاهرية) عميقة الدلالة حين ترن في أجواء مواقعنا الحالي (في معظم أقطار العالم الثالث والوطن العربي)، ولنسمع هذه الحوارية البليغة:

ـ صوت1: يا إلهي .. وكأنك لص الأمس .. سأنادي عليك الناس ..
ـ صوت2: (ساخراً) أنت تهذي .. الناس نيام .. اسمع يا هذا أنا لست لصاً، وأنت لم ترني ..! يا أحمق اللصوص من أهل بيتك ولست أنا ..!

ثم نفهم بعد قليل أن صاحب الصوت الثاني هو الحارس الليلي، الحارس المسؤول ... بيد أن المسألة تنعطف أعمق من ذلك، حين يطلب صاحب الصوت الثاني من الأول السكوت (لئلا يستيقظ الجاحظ وأبن خلدون والمتنبي) ويصحح الصوت الأول تفكير الثاني(في لا جدوى هؤلاء لأنهم لا ينطقون) فيقول له: كيف لا ينطقون، إنهم يقررون كيف تسير الأمور في التاريخ).

إنهم أحياء، فالتراث حي فينا، والماضي يتواصل في جوهره الثوري الإنساني عبر الحاضر ليلتحم بالمستقبل تلاحماً جدلياً، وينتهي المشهد(المظلم) بانبثاق الضياء الساطع على المسرح، وكناس يكنس المسرح بمكنسة ذات يد طويلة، إنه يكنس رماد التاريخ، والزيف مبقياً الحقيقة والنور والثورة.

* * *

أما المشهد الثاني للفصل الثالث، فيضل يواصل تسحين اللوحات الواقعية للمسرحية، مواصلاً ذات التفاعلية وذات التلاحمية في الكفاح والثقافة والعمل، إنها الانتقالية إلى معترك الحياة العملية، بعد التخرج، وإكمال شوط الدراسة ومشوار التحصيل العلمي العالي الأولي.

هنا نواجه انتهازية (فارس) متطورة في الشكل والمظهر(انتهازية الوظيفة بهد الدراسة) ونواجه كفاحية وصمود أحمد وآمال وبلال وباسل وبقية الشلة الطيبة، أما سعد فيغيب ويبحث الجميع عنه، ويدخل الحلبة زميل جديد يدعى نبيل.

ويختلفون في اختفاء سعد، كما يختلفون في مواجهة الحياة، ويظل أحمد الصوت الأشجع والأنبل والأنقى، لأنه صاحب قضية، متجلياً في ذلك بأعظم ما يكون التجلي مقابل برغماتية فارس.

إن الخلافات متوقعة ومنطقية ومبررة، إذ تختلف المصالح ووجهات النظر وزوايا الرؤية والتصرفات والأحكام؟

وينتهي المشهد بتأكيد هذه الخلافات فالكل يتفق أن صديقهم فارس يقرأ التقويم بالمقلوب(والإشارة هنا إلى قصيدة عبد الوهاب البياتي). إن الحزن مقيم ما أقامت أسبابه، أما المرح المصطنع فلا طائل وراءه، وسيكون يوم حقيقي للمرح الحقيقي .. إنه أحمد يفصل بين المتحاورين بمقولاته الدالة:

(أنا لست حزيناً بالطبع، ولكني أتهيب المعركة) و(إننا نواجه محيطاً جديداً، لا نستطيع أن ننكر وجود الصراع فيه بين الخير والشر) و (هذه هي طبيعة الأشياء) ويوافقه بلال بمقولته الحاسمة: (نعم .. فكل شيء واضح، ويبدو لي أن كلاً قد أختار معسكره ..!)

* * *

ننتهي إلى المشهد الثالث (والأخير) للفصل الثالث، إنه المشهد الختامي للفصل الأخير (الختام) للمسرحية موضوع الدراسة، وهو مشهد عميق في ديناميكيته أحداثه وإشاراته وتفاعلية شخوصه. وهو يقدم الحل الدرامي المرتجى، وهو حل واقعي ثوري(يتلاحم في شكله بين الواقعية والرومانسية الثورية، ويلتحم الواقع بالرمز، الماضي بالحاضر، والمستقبل في جدلية حية، موَارة، وعلى نحو خلاق.

يلتقي أحمد بآمال، ثم يلتقيان بساهرة، المثارة المنفعلة بغياب سعد، ثم ليلتقيا بسعد بعد مغادرة ساهرة، ليجد الثلاثة معاً الحل المطلوب، بقيادة أحمد، التي يتصدي لقيادة الناس بما فيهم السكرانين.. ويهطل المطر، فينتصر الحق والخير ويعم الخصب والنماء وتنتصر القضية.

ذلكم باختصار شديد جوهر مضمون المشهد الثالث(الختام) لهذه المسرحية المبدعة، وما يهمنا هنا، وما يهم التحليل المتابع، هو أن هذه الخاتمة لم تأت مقحمة، مفتعلة لصيقة، أو محشورة

ميكانيكياً، بل جاءت نهاية منطقية، مبررة، متطورة. أي أن الحل جاء منطقياً ثورياً، جدلياً، كما تنمو الشجرة، فتزهر، فتثمر، فتكون الثمرة أصيلة، أصالة الشجرة والبذرة ذاتها.

إن قدمي أحمد ثابتتان، وقضيته ثابتة، وكفاحيته ومبدئيته ثابتة، ومن هنا يكون نصره حتماً وأكيداً. والشجرة الرمز تشهد على ذلك، وعلى عموم تفاصيل القضية. والبحث عن سعد والعثور عليه يلَم تفاصيل القضية، وتشهد الشجرة مرة أخرى على ذلك، إن ضياع سعد هو الطريق إلى صحوته، وعثوره على هويته والتحامه بالسرب المقاتل:

ـ آمال: هذه الشجرة تجمعنا ..
ـ أحمد: لم أنس ما تعاهدنا عليه يا آمالي .. إنها ليلة عجيبة .. أنا أبحث عن سعد إنه ضائع، أبحث عنك .. أعود إلى الشجرة .. ماذا يعني كل ذلك ..؟
ـ آمال: أعلم أن الحزن تغطي غيومه سمائك ..
ـ أحمد: ولكن ها أنت ترين أن أقدامي ثابتة على الأرض ..
ـ آمال: بل وتدقهما وكأنك تدق مسماراً إلى الأرض لا تريد عنها فكاكاً، أو أنك تحرثها بقدميك ..

إن سعداً ضاع(بمعنى أنه أضاع عقله، فهو يهذي، ويحادث السكارى، ويجلس على أرصفة الشوارع) ويتفرق الأصدقاء (في شبه فرار جماعي) بينما تدق الساعة(وهي الأخرى رمز كالشجرة) دقاتها الأثني عشر ليلاً، فيثور التساؤل الواقعي (الرمزي): لمن تقرع الأجراس...؟

ـ أحمد: أجراس الساعة تدق ..
ـ آمال: أنها ساعة الأبطال ...
ـ أحمد (يقرأ هذه الأبيات) (8)

ليست هناك جزيرة من هو قائم بذاته كجزيرة ..
كل أمرؤ هو جزء من قارة .. جزء من كل ..
فإذا اجترف البحر ذرة من طين
انتقصت القارة
وموت أي إنسان ينقصني .. لأن الجنس البشري يشملني ..

ـ آمال: (تكمل)
لذلك ...
لا ترسل أبداً من يسأل ..
لمن تقرع الأجراس ..؟
إنها تقرع لك ..... أنها تقرع للأبطال ..

وبالطبع هذه إشارة إلي رواية أرنست همنغواي كما يوضحها الكاتب في هامشه وهي أبيات لشاعر بريطاني بذات العنوان: إنه التكريم الثوري وإشارة الانتقال نحو الفعل الثوري الحاسم.

أما قصة سعد وساهرة، في العلاقة غير المتكافئة موضوعياً، ينتهي سعد إلى الضياع ومجالسة السكرانين، وساهرة تندب برجها: لقد أحترق مسرحي.. حتى قارئ كفي ولى هارباً فزعاً مني وهو يولول: برج الحوت يلتهم كل الأبراج.. برج الحوت يلتهم كل الأبراج ...

هنا تتضح الإشارة إلى غلبة الغيبية الميتافيزيقية على التفكير العملي المنطقي، وهنا يعمل الفلكلور شارحاً أساسياً(بالشكل الذي أراده الكاتب) وليس عاملاً مساعداً. ومرة أخرى بين (برج الحوت) و(أغنية الشجرة تنعقد أواصر الحديث الفلكلوري الطاغي) في ذهن (ساهرة) ليؤرخ ضياع ساهرة هي الأخرى:

ـ ساهرة: لم أكن أريد أن اصدق بأني لا أستحق هذه السعادة .. أسالي هذه الشجرة ... (تخاطب الشجرة وتنشد بغمة صوت الأطفال):

أنظر لتلك الشجرة
ذات الغصون النضرة
كيف نمت من حبة
وكيف صارت شجرة ..

وتغادر ساهرة مجلس الأصدقاء والشجرة قبل الأوان، ليأتي سعد إلى الشجرة والأصدقاء، إنها الشجرة الرمز، إنها الشعب بشكل من الأشكال، وهي الواقع والرمز معاً، فيه الخصوبة والحياة والعمل والنصر والمعرفة والحكمة:

ـ سعد: ها أنا يا شجرتنا الحبيبة وأنت في قلب المحنة، نتساءل من جديد مالعمل .. أتذكر يا أحمد أول مجيئنا إلى المدينة سألنا أنفسنا تحت هذه الشجرة مالعمل ..؟
ـ أحمد: الفشل مرة لا يعني الهزيمة .. أنظر لقد ربحنا أنفسنا والتجربة ... الشجرة .. أنظر إليها كم هي واسعة وكبيرة .. ظليلة .. إنها تقول للبائسين هلموا إلى .. تمد أذرعها ..

وتدرك آمال حقيقة ضياع سعد، لأنه لم يلعب الدور المناسب على المسرح، أما أحمد فيردد (الكل مسحوقون) .. غير أنه سرعان ما يطل النصر العظيم .. يخفق بشراعه .. فتطير النوارس، ويهطل المطر .. (المطر الرمز .. رمز الخصب والنصر .. رمز مطر السياب العظيم وأناشيد في المطر العراقي ... نشيد الطوفان العظيم وقصة الخلق)

إنه المعادل الموضوعي الذي يقدمه الكاتب في ختام مسرحيته، فيحل إشكالها الدرامي، ويتوجها بالنصر العظيم، نصر الشعب الخالد، وفي توهجه يجد سعد الطريق نحو الخلاص ونحو نفسه، نحو النصر، سوية مع السرب، مع القائد أحمد وآماله ...

ـ آمال: (بفرح .. تؤشر إلى السماء) انشروا أشرعتكم .. هلموا إلي .. إنها الرعود .. إنها بشارة السماء .. إنها علامة المطر القادم .. لا يوقفنكم شيئ ...
ـ أحمد: (يمد يده ويستقبل أولى قطرات المطر) المطر .. المطر ... المطر .. المطر يهطل يا سعد (ثم يثب إلى وسط المسرح ويقف باستعداد العسكري ويصدر الأوامر) ..هلموا اشرعوا الشراع .. سنبدأ بعد قليل ..
تسأله آمال عن الوجهة فيقول: إلى الخير والمحبة .. والسلام.
ويلتحق الأصدقاء جميعاً باحتفالية المطر والأشرعة ...
ويحصل التحول عميقاً عند السكارى، فيصحو الجميع، ويظهر السكرانان ليتممان حديث المسرحية المنتصر ونشيدها الظافر والنشيد الختامي.
يهتف السكران الثاني: لن نسكر بعد اليوم .. ولن نحلم .. لقد جاء المطر ...
ويرقصان معاً احتفالية المطر .. ثم يهتف الأول للثاني: لنلحق بالناس .. هيا لنركض ..!

وكان الأفق قد امتلأ أشرعة وزوارق ... وخرج الناس جميعاً .. إنها الثورة .. وإنه النصر العظيم .... المرتجى

* * *

تلكم هي بعض التفصيل الضروري، دراستي التحليلية لمسرحية الدكتور ضرغام عبد الله الدباغ (الشمس تشرق على طيبي القلب) .. وإذا كان لي أن أعتذر، فلكل عمل أوجه سلبية وإيجابية، ولن تشذ الدراسة عن هذا القانون(ولست أدعي الكمال) فإني أقول إني كتبتها في ظروف المحنة، بعيداً عن مكتبتي ومصادري وكتبي التي أستشير في كل دراسة، فليعذرني القارئ الكريم، وليسمح لي ببعض التكرار والحماس، فإني أشاطر الكاتب رأيه منطلقاً من النص المسرحي الذي قدمه وأبدعه في ظروف المحنة والحصار.

إني أشارك الكاتب أيضاً حماسه النبيل، كما أشاركه شرف إهداء المسرحية إلى الناس جميعاً .. إلى جيلنا والأجيال القادمة.

فليسمح لنا القارئ الكريم ... وليقدر ظروفنا، وله الشكر أولاً وأخيراً

د. جليل كمال الدين

بغداد / أبو غريب

12/ 11 / 1987

مقدمة المؤلف

مرة أخرى أواجه فيها الجمهور بعمل أدبي، مسرحي على وجه الدقة، فأني وبعدما كتبت مسرحيتي الأولى " الناس والأمل والمستقبل " كنت أظن أنها ستكون العمل الأدبي الأول والأخير، لذلك لم أكن أحفل كثيراً بردود الفعل المحتملة من النقاد، رغم أن بعض من أصدقائي من المثقفين الذين لابد من الاستئناس بآرائهم، كانوا قد عبروا لي قبل غيرهم عن دهشتهم لفكرة المسرحية وبأمكان عرضها في تلك السنوات على المسرح، بيد أني كنت واثقاً أنها ستنال أعجاب من يقرأها، وسوف أظل على ثقتي هذه إلى أن تقدم ذات يوم على خشبة المسرح، وسيكون الجمهور أفضل حكم على الأعمال.

ولا بد لي من الاعتراف للقراء، وربما للمشاهدين بأني لم أجد الضرورة لأقدم نفسي في أعمال مسرحية، وكانت سيرة حياتي المبكرة قد أملت توجهاً نحو الفكر والثقافة، ولست في ذلك فيما أخال، مخالفاً لمعظم أبناء جيلنا الذي عاصر أحداث رهيبة.

بيد أني تأثرت بميولي الثقافية، وكنت قد كتبت عام 1983 عملاً أدبياً / فنياً يدور عن عمل للرسام الفرنسي الشهير يوجين ديلاكروا ولوحته " موت ملك " والتي دفعني إلى دبجها، هو للأسف جهل تام حتى من المثقفين لهذه اللوحة وتداعياتها الفنية والثقافية، ثم أني أضفت عليها ونشرت في صورتها الأخيرة في العديد من المواقع الثقافية.

وكنت قد كتبت مسرحية الناس والأمل والمستقبل " تلبية لطلب من أخي وسام الدباغ وعدد من أصدقائه هواة السينما والمسرح، وقد اعتبرت في حينه عملاً سياسياً / فنياً، وهي ليست مهمة بقدر ما إيصال تجربة إلى المسرح، فالهدف أولاً وأخيراً، هو خدمة الثقافة في بلادنا العزيزة وأمتنا العربية ومستوى وعي المواطنين.

وهذه المسرحية التي أقدمها اليوم إلى الجمهور، إنما هي أحداث مرت في حياة الكثيرين منا، في مرحلة الشباب تلك المرحلة الزاخرة بالأحلام والآمال، ولكن أيضاً بالخيبات والأحباطات، إن هذا العمل الأدبي إذ يحي بطولة ذلك الجيل، لكنه موجه إلى الأجيال القادمة .. تواصلاً للتجربة وتعميماً للفائدة.

أني أريد أن أشير في هذه المسرحية إلى بعض من التعقيدات التي تكتنف حياتنا، وأعتقد في كافة أقطارنا لأننا نعيش ظروفاً سياسية/ اقتصادية/اجتماعية متشابهة، إن مجتمعاتنا لما تتخلص بعد من تأثيرات الريف وربما حتى البداوة، ربما تكون الملامح الصارخة لتلك قد اختفت وطغت عليها ملامح الحياة العصرية بمتطلباتها المعقدة، فلما وجد إنساننا صعوبة التلاؤم مع المعطيات العصرية، فضل اللجوء إلى حصونه القديمة المريحة التي قد أختبرها وعاش خلالها، وفي المدينة يواجه الصراع الاجتماعي حيثما ذهب وحل.

في اعتقادي أن للمسرح وظيفة ربما الإمتاع هو جزء منه، ولكن الجزء الأعظم بتقديري هو مساهمته في حل إشكاليات ثقافية/ اجتماعية، أو لنقل إيضاح زوايا من تلك المهمات، لنقدم مساعدة للعلماء والكتاب في دراساتهم النظرية والعملية، وأن نغني جانباً فنياً نعتقد أن الإنسان في كل آن وأوان بحاجة له، لا بد أن نعنى برفع مستواه الثقافي والفني.

أحد أصدقائي قال لي أن الشجرة ترمز إلى كذا .. وأن آمال هي عبارة عن رمز لأمالنا جميعاً، وأن المدينة هي تعبير عن... ومدرس الإيديولوجيا كناية عن ...

فما أجبته... ابتسمت فقط..... ففي الشرح تضيع لذة الاكتشاف ...

إن أصبت شيئاً من النجاح، فذلك نصر كبير لي، وإن ساهمت ولو بقدر قليل في رفع مستوى وعي وثقافة الناس، فذلك هو بالضبط غاية هذا العمل وكل أعمالي ...

إذن إلى الناس جميعاً .. إلى جيلنا والأجيال القادمة ...

تحيتي

المؤلف
تشرين الأول/ 1987
أبو غريب / بغداد

الفصل الأول

المشهد الأول

(شاب يجلس على مصطبة في حديقة، تحت شجرة، يمسك بيده صحيفة، يتطلع إلى ساعته، ينتظر شخصاً ما، ويبدو أن الشخص قد تأخر، تبدو عليه علامات نفاذ صبر، وأخيراً أقبلت فتاة)
(ينهض أحمد من كرسيه للقاء الفتاة، ويخاطبها بلهجة عتاب رقيقة)

ـ أحمد: تأخرت يا آمال، كدت أن أترك الموعد، لقد كنت محرجاً وأنا أنتظرك..!

ـ آمال: أنا آسفة .. حقاً آسفة، ولكنك حتماً تدرك بأني لم أتأخر أهمالاً، أنت تعرف ..!

ـ أحمد: (مقاطعاً) يا إلهي كم مرة ينبغي أن اسمع المعزوفة نفسها، .. أهلي .. الجيران .. تقدير الظروف .

ـ آمال: يا أحمد يا عزيزي لقد تحدثنا في هذا الموضوع مرات عديدة وفي كل مرة نصل إلى ذات النتيجة ..

ـ أحمد: نعم .. نعم .. ما أروع ذلك فعلاً، إننا برغم محاولاتنا للأفلات من التقاليد إلا أننا يبدو لا بد من أن نقدم لها الاحترام المزيف .. أليس كذلك ..؟

ـ آمال: لا أدري ماذا أقول لك، أنت تعرف كل شيء مثلي، ولكن لماذا تعتقد بأني أقل منك سخطاً، هل بفضل كونك تتمتع بظروف أفضل من ظروفي، تمارس سطوتك تحت شعارات الحب، ها أنت أيضاً كالآخرين تستخدم امتيازاتك بقسوة ..

ـ أحمد: أنا أطالبك فقط بأن يكون حماسك كحماسي .

ـ آمال: (مقاطعة) ها نحن نصل حرفياً إلى ما يشبه مناقشاتنا السابقة، ونضيع وقتاً في أمور مفروغ منها ..

ـ أحمد: (مقاطعاً) أعلم كل ذلك، أعلم، نحن نعيش هذه الهستيريا كل مرة ..

ـ آمال: تلك مفروضة علينا بفعل ظروفك وظروفي ..

ـ أحمد: أتمنى لو أمتلك طاقة خرافية وأنسف وأنسف، ولا أبقي إلا على ...

ـ آمال: (مقاطعة) دعك من الأوهام، والآن هل من جديد تحت شمسك ..؟

ـ أحمد: نعم .. الشيء الوحيد الذي أستطيع أن أبشرك به، هو أن الشمس كانت اليوم ساطعة وستسطع غداً أيضاً وبصرف النظر عن أزمتي، وماذا تقدم لي القرية سوى شمس ساطعة ..!

ـ آمال: أنت غاضب، ساخط، وفي هذه الحالة فإنك لن تستطيع أن تشاهد بوضوح ..!

ـ أحمد: (بسخرية) ها أنت تستكثرين علي حتى الغضب ..

ـ آمال: أنا لا أقصد ذلك حرفياً، أقصد أنه لوحده غير مفيد، أنظر كم صرفت من الوقت لتقنعني حتى اقتنعت فعلاً بأن علاقات القرية أفضل من مجتمع المدينة، إن مجتمع القرية أكثر نقاء و .. و ...

ـ أحمد: كنت أريد أن أقول لك أن أهل الريف ليسوا أوغاد كأهل المدينة، أردت بذلك أن أقول لك أن مجتمع المدينة مزيف، باطل الأباطيل ..

ـ آمال: ولكنك لست راضياً عن قريتك الفاضلة، ولا عن شمسها التي تسطع يومياً ..

ـ أحمد: لأنها لا تحل مشاكلي ..

ـ آمال: (مقاطعة) ولكن بشرها طيبون أنقياء ..

ـ أحمد: (مقاطعاً) أنهم سذج إلى حد البلاهة، وإنهم إذ لا يستطيعون فعل الشر، فهم غير قادرين على الخير، إنهم عاجزون عن الخير والشر معاً ..

ـ آمال: لا بد أنه سيقدرون عليه يوماً

ـ أحمد: متى ..؟ عندما أكون أنا نسياً منسياً ..!

ـ آمال: وإذن .. قريتك بلهاء ساذجة، ومدينتي داهية ماكرة ...

ـ أحمد: (مقاطعاً) ونحن بين المطرقة والسندان، مشروع لكيان هش ..

ـ آمال: أني أستغرب ذلك .. وكأن هذه المفاهيم جديدة عليك، وكأن هذه الموضوعات بعيدة عن وعينا ..

ـ أحمد: لا .. ليست جديدة أو بعيدة، ولكني لم اشعر بثقلها كما اشعر اليوم، إنني أحس بالانسحاق..!

ـ آمال: والآن .. أتريد أن تسمع مني تحليلاً لوضعك النفسي ..؟

ـ أحمد: تفضلي أيتها الواعظة الحكيمة ..!

ـ آمال: أحمد أني لا أمزح و..

ـ أحمد: نعم تفضلي .. سأستمع بجدية رجل المدينة المهذب الذي يستمع إلى الحق ويهز رأسه موافقاً ولكنه يفعل الباطل، أو يبتسم ابتسامة مزيفة عندما يستمع إلى نكتة مكررة ألف مرة ..

ـ آمال: أرشدني إلى طريقة يمكن بها أن نفسر وضعنا المتوتر ..

ـ أحمد: أنا متوتر، أما أنت فلا، فخلفك تراث طويل يمتد لأجيال طويلة يجعلك أكثر اتزاناً .. أنت لست عفوية مثلي ..

ـ آمال: يا أحمد، أرجوك دعك من كل هذا ..

ـ أحمد: (بسخرية) عندما نصل إلى نقطة جوهرية تحاولين ..

ـ آمال: (مقاطعة) أنا لا أحاول، صدقني، الحياة هكذا .. الحياة تطرح نفسها علينا هكذا، فهنالك دائماً مبرر للاستيلاء ومبرر للغضب ..

ـ أحمد: ها أنت في محاولة فاشلة لتبرير الأزمة التي نعيشها، وفشلنا في الخروج منها ..

ـ آمال: (بدهشة) أنا أنكر وجود أزمة..؟ أنا لا أنكرها ولكني أختلف معك في النظر إليها وكيفية التصرف إزاءها ..

ـ أحمد: وكيف نتصرف إزاءها برأيك ..؟

ـ آمال: لا أدعي أن بإمكاني التصرف إزاءها .. لا بد أن نكون معاً ..

ـ أحمد: وحتى نكون معهاً ..؟

ـ آمال: لا بد أن تدرك أنك كنت على خطأ بانبهارك السابق بالمدينة، ثم شجبك المطلق عندما واجهتها، وارتدادك غير المقنع لك قبل كل شيء إلى القرية. المدينة ليست فاضلة بسبب بساطتها ..

ـ أحمد: وإذن ..؟

ـ آمال: الأمر لا يحتمل أنبها أو الشجب ..

ـ أحمد: (بضحك وبلهجة مازحة) من أين جئت بهذه الحكم ؟

ـ آمال: أي حكم، أنت تعرفها خير مني، ولكنك تخضع نفسك لأحكام الهوى أحياناً ويملي عليك الغضب مواقفاً ..

ـ أحمد: مالعمل ..؟ أنا فلاح الأصل .. استجيب لردود الفعل الأولى بسرعة وعفوية، ولكني سرعان ما أنفس عن ذلك كإطار سيارة يثقب على حين غرة ..

ـ آمال: كنت قد قررت أن لا أجاريك، ولكنك .. ها قد نجحت فيما تريد ..

ـ أحمد: هل هناك من غريب غيرنا في المدينة ..؟

ـ آمال: الكل غرباء .. لقد فقد الناس تضامنهم ..

ـ أحمد: ها قد أصابتك العدوى، وأنت الآن تلعبين دور المتشائم ..

ـ آمال: بالعكس فأنا دوما متفائلة ..

ـ أحمد: نعم المدينة متفائلة لأنها تعمل وتثق بالغد، والقرية متشائمة لأنها تزرع وتنظر المطر.

ـ آمال: المدينة تطرح شكاً في الأشياء

ـ أحمد: ولكنها عندما تصل إلى الاقتناع يكون قناعتها صلبة، القرية تقتنع بسرعة وتتنكر لقناعاتها بسرعة ..

ـ آمال: هل أراك صرت معجباً بالمدينة ..؟

ـ أحمد: الأمر ليس كراهية أو إعجاب، المسألة أعقد من ذلك، المدينة جهاز معقد ليس من السهولة التعامل معه، لاحظي، أنها كآلة موسيقية معقدة يصعب العزف عليها، وكموسيقى القرية بسيطة، ساذجة ... أنني أحترم المدينة وأخافها ..

ـ آمال: إلا أنك جئت إليها، واقتحمتها وها أنت تتقدم ..

ـ أحمد: أتقدم ..؟ هذه مبالغة .. أنت ترين أنني لا أتقدم شبراً إلا بشق الأنفس .

ـ آمال: ولكنه تقدم ثابت وأكيد ..

ـ أحمد: لا بد من إنجاز الدراسة الجامعية أولاً .. وإيجاد العمل .

ـ آمال: هل ستبقى في المدينة ..؟

ـ أحمد: يبدو أنها أوقعتني في شباكها (يضحك)

ـ آمال: (بلهجة عتاب) وهل أنت غاضب لأنك سقطت في شباكها ..

ـ أحمد: لا .. لا .. فتلك حتمية الأشياء، القرية تضخ الرجال، لتلتهمهم المدينة، كأن القرية مفرخة للبشر، يا إلهي كم تلتهم المدينة من بشر وطعام، وكم هي هائلة بأحشاءها وبحركتها وبإيقاعها الصاخب ..

ـ آمال: أحمد كنت قد أعددت لك أقتراحاً..

ـ أحمد: وهل يمتلك أبن القرية سوى المثول (يمزح بود ظاهر)

ـ آمال: لا تتخابث .

ـ أحمد: صدقيني لم أقصد ذلك .. والآن إلى أين ..؟

ـ آمال: هناك مسرحية رائعة .. أتمنى لو نشاهدها معاً

ـ أحمد: (ضاحكاً) أهي غرامية .. كقصة حبنا الدامي ..؟

ـ آمال: (بغضب وغنج) وماذا لديك لتحتج على قصة حبنا ..؟

ـ أحمد: لا شيئ .. أنت تعرفين أنني أودك كثيراً

ـ آمال: ود .. فقط ..؟

ـ أحمد: (ضاحكاً) هيا لنذهب إلى المسرحية، إن طمع النساء لا نهاية له ..

(يخرجان من المسرح يضحكان)

الفصل الأول

المشهد الثاني

(في ذات المكان .. يمر رجلان سكرانان، يقفان تحت عمود الضوء بالقرب من المصطبة)

ـ السكران الأول: (يتابع حديثاً كان قد ابتدأ قبل الآن) حسناً إذا قفزت من قمة هملايا فماذا يحدث لك ..؟

ـ السكران الثاني: (ضاحكاً) يا له من سؤال سخيف، طبعاً ستنكسر قنينة المشروب في جيبي

ـ الأول: وإذا قفزت من برج إيفل ..؟

ـ الثاني: سوف يتسخ سروالي .. مهلاً أتراك تريد امتحان معلوماتي ..؟

ـ الأول: امتحان ..؟ (يضحك) يا لك من مغفل أحمق، ألم نتجاوز سن الرشد منذ زمن بعيد ..؟

ـ الثاني: لا .. أنا لا أريد أن أجتاز سن الرشد، لا أريد..!

ـ الأول: اسمع في مثل هذه الأشياء لا يأخذون رأي حضرتك .. وهذا مدون في هويتك الشخصية ولا تستطيع نغيرها .

ـ الثاني: (بدهشة مصطنعة) صحيح ..؟ يا لها من مصيبة، وماذا مدون أيضاً في بطاقة الهوية ..؟

ـ الأول: ألا تدري ماذا مدون بعد ..؟ هل أنت غبي أم سكران ..؟

ـ الثاني: ربما كلاهما يا صديقي.

ـ الأول: أنهم يكتبون عنك تفاصيل كثيرة ..!

ـ الثاني: (مقاطعاً) تفاصيل ..؟ ولماذا .. ماذا يهمهم من أمري ..

ـ الأول: لا يهمهم أمرك بفلس واحد، ولكن المعلومات ضرورية، أليس لديك هوية ..؟

ـ الثاني: ولماذا ضرورية ..؟

ـ الأول: عليك اللعنة لقد سحبتني إلى موقف جدي وضاعت نقودنا التي سكرنا بها ..

ـ الثاني: أنت فعلاً أحمق حقيقي وبغل أيضاً، لا تسكر إلا بنصف زجاجة خمر ..

ـ الأول: وأنت ..؟

ـ الثاني: أنا سكران دائماً .. حالم دائماً .. أنظر
(يقلد الطير بطيرانه ويرفرف بذراعيه حول الأول)

ـ الأول: وهل يحدث أن تصحو أحياناً ..؟

ـ الثاني: نادراً، ولماذا اصحو .. أعطني سبباً وجيهاً واحداً .

ـ الأول: سبب واحد .. هناك حفنة أسباب .. كيف تمارس عملك وأنت سكران ..؟

ـ الثاني: (بتعجب) أف ..! عملك ..؟ أحسن طريقة أمارس فيها عملي هي عندما أكون سكراناً

ـ الأول: (بدهشة) فعلاً أنك مدهش، إنني أستغرب ذلك .

ـ الثاني: ولماذا تستغرب، فأنا لم أتوصل إلى قناعاتي إلا عبر تجارب مريرة ..؟

ـ الأول: ولكن قل لي، ماذا إذا كنت تريد أن تباشر مشروعاً جدياً ..؟

ـ الثاني: وأنا سكران أو حالم ..!

ـ الأول: أخبرني بربك، هذا لا يعقل، فمثلاً إذا أردت أن تشاهد مسرحية مع صديقتك ..؟

ـ الثاني: هذه أفعلها وأنا حالم .

ـ الأول: ولماذا حالم ..؟

ـ الثاني: أنك هنا تثير مشكلتين، الأولى أن ساذج، والثانية أنك صاح جداً وتسأل كثيراً .. يا صديقي أحلم ، أحلم ، صدقني الحلم أفضل

ـ الأول: أني أريد أن أصدقك، ولكن لماذا أحلم .؟

ـ الثاني: لأن اليقظة تثير مشاكل عديدة ..

ـ الأول: مشاكل ..؟

ـ الثاني: طبعاً .. فأذا سرت مع صديقتك علناً في الشارع فهذه مشكلة، وإذا أحببتها فهذه مشكلة أخرى، أما إذا أردت أن تتزوجها فهذه مجموعة مشاكل .. أحلم يا صديقي أحلم، فأنك ستحصل على ما تريد مجاناً وبدون مشاكل ..

ـ الأول: عجيب .. ها .. أسمع وماذا إذا أردت أن تقرأ كتاباً ..؟

ـ الثاني: كتاب ..؟ أنا لا أقرأ الكتب منذ زمن بعيد .. لحظة لا تثر بوجهي سؤالاً، قل أنت ما هي فائدة الكتب ..؟

ـ الأول: كيف يمكن لي أن أتصور حياة إنسان بدون كتاب ..؟ غريب وأنت ألم يكن الكتاب كل شيء في حياتك ذات يوم ..؟

ـ الثاني: (يضحك) كنت مثلك أتصور ذلك أيضاً، ولكن النتائج والتجارب العملية أفضل برهان .

ـ الأول: أعني أن هناك موضوعات تستلزم زج قواك العقلية لفهمها ..

ـ الثاني: وإذا زججت عقلي ماذا يحدث ..؟ هل تعلم ماذا يحدث ..(يضحك بشكل متواصل)

ـ الأول: نفهم بصورة أفضل ..

ـ الثاني: وإذا فهمت أفضل .. اسمع يا صاح، أنت ينطبق عليك أغنية طفولتنا القديمة :

يا خشيبة نودي نودي
وديني لبيت جدودي (1)
وجدودي بطارف عكا
ينطوني ثوب وكعكة
والكعكة وين أضمها؟
أضمها بصنديكي
وصنديكي يريد مفتاح
والمفتاح عند الحداد
والحداد يريد فلوس
والفلوس عند العروس
والعروس بالحمام
والحمام يريد قنديل

والقنديل بالبير
والبير يريد حبل
والحبل ... الخ

ـ الأول: والنتيجة ..؟
ـ النتيجة أنك لن تصل إلى نتيجة فتذهب إلى البار لتبحث عنها مثلي، ولكن مع الفارق، أنا أطير بربع قنينية، وأنت بنصف قنينة، وتثير بعدها أسئلة سخيفة معادة ومكررة فتصحو، فتخسر أنت ثمن الخمر والوقت الذي أهدرته عبثاً ..

ـ الأول: يا إلهي كم هذا مريع .. إذا كان صحيحاً ..؟

ـ الثاني: طبعاً صحيح، أنا لا أقول لك شيئاً من جيبي .. أنت غارق في كتبك، وأنا جرحني الواقع والتجربة..

ـ الأول: أنت تتألم كثيراً، بل أنت تهذي من الألم..

ـ الثاني: هراء .. أنا لا أهذي، أنا أحلم .. أحلم، هل سمعت أحلم ..! هل الحلم أيضاً ممنوع ..؟

ـ الأول: لا طبعاً .. ولكن الطيران في الأحلام ...

ـ الثاني: (مقاطعاً) أي نعم .. أي نعم، طائر في الأحلام أفضل من الذي لا يحقق شيئاً .. قل لي ماذا نفعتك كتبك ..؟

ـ الأول: صحيح .. أن الواقع الموضوعي صعب وإن ..

ـ الثاني مقاطعاً: صه .. صه .. اسكت.. تعال جانباً ها قد جاء شاب وشابه إنهما ليسا بسكرانان، ولا يحلمان .. أنهما يتناقشان ..

ـ الأول: أليس من المعيب أن ننصت إليهما ..؟

ـ الثاني: تعال، من يهتم بأمر صعاليك سكارى على قارعة الطريق.

(يختبئان خلف شجرة وأدغال ... يمر أحمد وآمال)

ـ آمال: (تتوقف عن المسير وتستدير لأحمد) أنظر أحمد، ما زال مقعدنا خالياً، وكأن أحداً لم يجلس عليه ..

ـ أحمد: الناس نيام ..

ـ آمال: ولكن الوقت ليس متأخراً ..!

ـ أحمد: الناس نيام ..

ـ آمال: فلنجلس مرة أخرى هنا ..

ـ أحمد: ولماذا ..؟

ـ آمال: لا أدري ولكن يعجبني أن أفعل هذا ..

ـ أحمد: أنت رومانسية، مع أنك ابنة مدينة ..!

ـ آمال: ابنة مدينة نعم، ولكني لست رومانسية، إنما أردت أن أزيل من نفسك الحزن الذي خلفته المسرحية .. لما حزنت ..؟

ـ أحمد: يا آمال، ألا ترين إننا محاصرين جميعاً داخل أنفسنا ..؟ أنا فلاح جئت إلى المدينة ولم أكن مسلحاً إلا بطيبة القلب الموروثة، وبألف مشروع خير، كنت أعتقد أن المدينة هي الحقل الأمثل للاستثمار..

ـ آمال: (مقاطعة) ووجدت مجتمع المدينة معقداً، وأن وعيك الذاتي لا يحل جميع الإشكالات، وطيبة القلب لوحدها بضاعة كاسدة ..

ـ أحمد: أليست هذه لوحدها تجربة مريرة، كنت أعتقد بطيبة قلب الفلاح، وذكاء المدينة أن مشروع الخير يتحقق وسيسانده الجميع .

ـ آمال: تبقى المدينة ...

ـ أحمد: (مقاطعاً) نعم تبقى المطبخ الحقيقي والرئيسي، أعرف ذلك، ولكن الطريق معقد ..

ـ آمال: وأنا أعرف أني أحبك ..

ـ أحمد: آمال، أنا فلاح وفقير، أحبك ولكن هل يكفي هذا للدخول في زحام المدينة ..؟

ـ آمال: أنا لا أريد شيئاً سوى حبك وإخلاصك وأن نبقى معاً ..

ـ أحمد: وأهلك والناس والضرورات اليومية ..؟

ـ آمال: بالنسبة لي في اشياء غير مهمة.

ـ أحمد: قبل قليل قلت بنفسك أن الوعي الذاتي .. لا يحل المشكلة ..

ـ آمال: سنتغلب عليها أنت وأنا

ـ أحمد: ستتصدى لنا قوى كثيرة، ممن لا يفهمون طيبة القلب ومشاريع الخير والحب ..!

ـ آمال: وليكن، قل لي أنك ستبقى معي ..

ـ أحمد: لن أتخلى عنك أبداً

ـ آمال: مهما بلغت المصاعب ..

ـ أحمد: سوف لن أتخلى عنك أبداً

(تنهض آمال وتتأبط ذراع أحمد ويغادران المسرح وهما يتحادثان بصوت غير مسموع)

(يخرج السكرانان من وراء الشجرة)

ـ الأول: أرأيت كم كان ذلك جميلاً ..؟

ـ الثاني: أنت رأيت صورة جانبية، أنا رأيت كل الصورة ..

ـ الأول: إنها صورة جميلة ..

ـ الثاني: في نصفها الأول، ولكن الصورة كاملة تضم حزناً وقهراً، واستبداد العائلة والأب والأم والعم، إنها قوانين الأسرة ..

ـ الأول: ليكن، إنهما يخوضان معركتهما العادلة ..

ـ الثاني: أنت تركز على إرادتهما الذاتية، وتهمل الصعوبات الموضوعية(بسخرية) أم أنك تراك تخالف ما قرأت في كتبك ..

ـ الأول: لست أخالفها، ولكن البدء بالإرادة وهي متوفرة عندهما ..

ـ الثاني: (بنفاذ صبر) إذن فكيف برأيك تسير الأمور ..؟

ـ الثاني: لا تحل مشكلة ما بوعيك الشخصي لها، لا بد من توفير العربة التي تنقلك إلى جنتك.

ـ الأول: (وقد نفذ صبره تماماً يسير بضعة خطوات إلى الأمام) وأنت ..

ـ الثاني: مقاطعاً: أنا .. تعال معي .. تعال (بجدية)

ـ الأول: إلى أين ..؟

ـ الثاني: تعال

ـ الأول إلى أين ..؟

ـ الثاني: أمسك ذيل معطفي .. أمسك

(الأول يمسك ذيل معطف الثاني، والثاني يقوم بحركات كأنه يرفرف جناحيه ويطير)

ـ الثاني: نطير .. نطير حلماً، أو يقظة .. حتى يتحقق الحلم .. آه كم حسدت الطيور على حريتها ..

ـ (الأول ينفض ذيل معطف الثاني بشدة) لا .. هذا مشروع خرافي ..

ـ الثاني: أليست الخرافات أفضل من نطح الحائط ..؟

ـ الأول: لا ... لا ... لا

ـ الثاني: (يردد بعصبية) لا .. لا .. فقط لا .. ترددها كبغل عنيد

ـ الأول: لا ....

ـ الثاني: (بسخرية وضحك وغناء) لا .. لا .. لا تكذبي .. إني رأيتكما معاً (2)

(يغادران المسرح)

ستارة

الفصل الثاني

المشهد الأول

(مجموعة من الشبان يجلسون في نادي الجامعة يتناقشون فيما بينهم، جهاز المذياع يرسل بصوت عال أغان وموسيقى، أحمد منشغل بمطالعة مجلة، وأمامه على الطاولة صحف وكتب مدرسية)

ـ سعد: أقسم لكم يا أصدقاء أني لم أفهم شيئاً من هذه المحاضرة.

ـ نبيل: هل تقصد بأنك كنت منشغلاً عنها، أم أنك لم تفهم الموضوع ..؟

ـ سعد: آه .. يحق لك طرح مثل هذا السؤال طالما أنت لم تتعرف بعد على أستاذ المادة.

ـ فارس: أنا شخصياً اهتديت للحل الأمثل ..!

ـ سعد: الحل الأمثل لماذا ..؟

ـ فارس: طالما أن المادة مطلوبة للامتحان، فأنا أحفظ الدرس كالنشيد ..

ـ سعد: وهل برأيك أن هذه طريقة مثلى في تلقي العلم ..؟

ـ فارس: يا صديقي، إنها على كل حال أفضل من الرسوب في السنة النهائية.

ـ سعد: يعني أنك وجدت للمشكلة حلاً انتهازيا ..!

ـ فارس: (بضجر) أووه .. ها نحن عدنا إلى نفس المشكلة، تقحم كل الأشياء في طريقة فهمك المعقد لها ..!

ـ سعد: يا لك من أحمق لا تحتمل المزاح ..

ـ فارس: أنت لم تكن تمزح، أنت هكذا .. مخلوق معقد ..

ـ سعد: (يضحك) هيا أخبرني على سبيل المثال كيف يمكنك أن تحفظ درس اليوم أو الأمس

ـ فارس: (يقلد الأستاذ) أسمعوا هكذا يلقي الأستاذ المحاضرة:
إن التطورات الموضوعية، مصطحبة معها غاز ثاني أو كسيد الكاربون، الذي يتفاعل مع العوامل الذاتية للأشياء ويجعلها تنفرش أفقياً باتجاه الشمس الذي يلقي بأشعته على الكائنات اللامرئية فتتحول إلى نهوض عمودي فتزدهر الثقافة..

ـ سعد: (ينقر على المنضدة ويردد الأصدقاء معه)وما أشربش الشاي ... أشرب كازوزة أنا..

ـ نبيل: (ضحك ودهشة) ومن هو هذا المدرس اللطيف ..؟

ـ سعد: الأستاذ أكرم.. أخي فلسفة ..!

ـ نبيل: فلسفة ماذا ..؟

ـ سعد: طالما أن الفلسفة لا بد أن تكون معقدة، وغير مفهومة، فإذن الهراء الذي سمعته يسمى فلسفة .

ـ نبيل: وماذا يسمون هذه الفلسفة ..؟

ـ سعد: قلنا لك فلسفة الأستاذ أكرم.. ما أشربش الشاي، أشرب كازوزة أنا ..

ـ بلال: والمشكلة أنها مكن المواد الرئيسية، وليس لها مصادر، فإذن لا بد أن نعتمد على متابعة الأستاذ في تحضير المادة .

ـ نبيل: ولكن هذه التعقيدات تزيد من صعوبة الامتحان ..!

ـ سعد: سترى ذلك بنفسك عندما تصل إلى الصف المنتهي.

ـ نبيل: لابد أن الطلاب والطالبات جميعهم يشكون من هذه المادة ..؟

ـ سعد: الحقيقة (يغمز فارس ثم يضيف بلهجة فخمة) لا يجوز لنا أن نتجنى على الطلاب جميعاً، فهناك دائماً عباقرة مثل الأخ فارس ويحفظون الدروس عن ظهر قلب دون أن يفهم المادة، كالببغاء، ومعهم الحق في ذلك ..! ولماذا يفهمون المادة طالما أن الفهم غير ضروري، وطالما أنهم ينجحون بعلامات عالية ..؟

ـ فارس: طيب قل لي وأين الحكمة في أن أرسب وأن افقد سنة كاملة، بكامل مصروفاتها، ثم لا تنسى أن تخرجك متأخراً سنة كاملة وما يعنيه من رواتب وعلاوات وترفيعات واحتمال الحصول على إيفادات ..

ـ سعد: يا ويلاه .. يا ويلكم يا معشر الطلاب، فقد عرفتم شيئاً وغابت عنكم أشياء، من منكم أجرى مثل هذه الحسابات المعقدة ..(ينقر على المنضدة ويغني : شوف القوة بتعمل أيه).

ـ أحمد: (يزيح المجلة جانباً) على مهلكم يا أخوان.. لا تزعجوا الآخرين ..

ـ سعد: أسمع عمي .. أسمع يا سليمان الحكيم، اقسم بأنك خسرت سماع شيء يعادل كل ما قرأت في مجلتك هذه ..

ـ أحمد: ما الخبر ..؟

ـ سعد: تصور أنه يحفظ عن ظهر قلب سخافات الأستاذ أكرم، والأدهى من ذلك، فقد أجرى أخونا المحترم، ولابد لنا أن نفتخر بوجوده بيننا، أجرى حسابات دقيقة عن رواتبه وعلاواته وترفيعاته، بل عن إيفادات محتملة ..!

ـ فارس: وماذا في ذلك .. هل حرام أن يهتم الإنسان بمستقبله .؟

ـ بلال: (بتهكم) للأنصاف يا فارس .. أنك بطل وزنك وكل الأوزان في قفز الموانع

ـ سعد: أي موانع .. أي ساحة وميدان، أنه بطل الأكروباتيك وسيصبح نجماً في السيرك ..

ـ فارس: أرجوكم ..

ـ سعد: (مقاطعاً) وماذا فيها ..؟ في السيرك .. يدفعون رواتب عالية جداً ومغرية ..

ـ بلال: (مقاطعاً) وتأخذك سيارة وتعيدك إلى البيت بعد العرض

ـ سعد: (مقاطعاً) وقطعة سكر بعد كل إنجاز باهر

ـ فارس: أرجوكم، أن لا يتعدى المزاح حدوده

ـ أحمد: على مهلكم، ليس هذا مكاناً لإثارة الضجة

ـ سعد: (بمزح) هذا صحيح يا فتى بني يقظان

ـ أحمد: أسمعوا لنعد مشروعاً لأمسية اليوم ..

ـ بلال: عظيم .. لنشاهد مسرحية " حريق مدينة بومبي "

ـ أحمد: كنت بالأمس هناك ..

ـ سعد: ها .. حتى أنت فتى بني يقظان ..!

ـ أحمد: صدقني ذهبت إلى المسرحية دون تخطيط مسبق، دعوني لها فذهبت.

ـ سعد: الدعوة كرم لا ترد

ـ نبيل: وهل كانت المسرحية جيدة كما يكتب النقاد عنها ..

ـ أحمد: نعم المسرحية كانت عملاً جيداً الإخراج، كما أدى الممثلون أدوارهم ببراعة، ولكن..

ـ سعد: ولكن ماذا .؟ لكن هذه أراها مريبة ..!

ـ أحمد: لا ليس لهذه الدرجة، أنها مسرحية تخرج منها حزيناً ..

ـ فارس: حزيناً ..؟ ولماذا ..؟ وعلى من ..؟

ـ أحمد: لا أدري، ليس من السهل شرح المسرحية، ولماذا تستعجلون معرفة الأحداث، ستشاهدونها بأنفسكم ..

ـ فارس: ولماذا نشاهدها إذا كانت حزينة ..؟

ـ سعد: وهل كان ذلك انطباعك الشخصي أم انطباع الناس بصفة عامة، أقصد الحزن الذي أثارته المسرحية

ـ أحمد: أنا خرجت حزيناً .. لست أدري بالضبط على ماذا وعلى من ؟ ربما على نفسي، وعلى الناس وعلى ما آلت إليه أحداث المسرحية ..

ـ فارس: إنها مسرحية والسلام .. أنها مؤلفة والتأليف خيال، وكل خيال لا يستحق الجدية ..

ـ سعد: لكثرة ما حفظت من دروس الفلسفة السخيفة صرت لا تميز بين العمل الفني الواقعي والخيالي ..

ـ فارس: (بعصبية) إذن قل لي كيف تستطيع أنت أن تميز بينها ..

ـ سعد: وهل تريد أن تعرف ذلك حقاً ..؟

ـ فارس: نعم ..

ـ سعد: إذن فإنك لن تستطيع أن تفهمها، وسأقول لك لماذا .. لأنك ملتصق بذاتك التصاقا شديداً يصعب عليك فهم ما يجري حولك، ولشد ما أنت منشغل بنفسك ..!

ـ نبيل: عندما تهدر الأنا في نفس إنسان، فإن هديرها الصاخب تفقده القدرة على تميز الأصوات الأخرى ..

ـ فارس: تفضل .. لم يكن ينقصنا سوى أنت لتكمل الجوقة

ـ بلال: دعونا نفكر بمشروع اليوم، أقرأ لنا يا أحمد ماذا تقدم لنا المدينة اليوم ..

(أحمد يفتح الصحيفة ويقرأ الإعلانات)

ـ أحمد: السينمات تقدم لنا يا أخوان ... سأقرأ لكم عناوين الأفلام .. عودة المسدس المنتقم، قتال في هونغ كونغ، الفارس الملثم، من أجل حفنة دولارات ..

ـ سعد: (مقاطعاً) لا تقرأ أكثر ... مفهوم

ـ أحمد: هناك فرقة مسرحية تعرض .. شقاوة تلامذة المدرسة

ـ فارس: يبدو هذه جيدة

ـ بلال: بالعكس أنها سخيفة جداً .. حدثني عنها صديق تورط وشاهدها ..

ـ سعد: (مازحاً) فلنشاهدها من أجل صديقنا العزيز فارس ..

ـ فارس: (غاضباً) ليكن المزاح في حدوده رجاء

ـ نبيل: إذن يبدو فقد حكم علينا بالأشغال الشاقة بمشاهدة التلفزيون

ـ سعد: (بمزح) فارس ليست لديه مشكلة، فهو يستمتع بمشاهدة البرامج التلفازية الخلابة

ـ فارس: أخي لماذا لا تتركني وشأني

ـ بلال: ولماذا لا يتركنا مدرس الفلسفة وحالنا ..؟

ـ أحمد: مقاطعاً على مهلكم، نحن جالسون في محل عام لا يجوز فيه الحديث بصوت عال، ثم أن ذلك لن يحل المشكلة ..

ـ نبيل: والعمل ..؟

ـ سعد: فكر يا صديقي فكر ..

ـ بلال: ما رأيكم أن نتسكع في شوارع المدينة بدون هدف، ونشاهد الناس وماذا يفعلون، وماذا تعرض السينمات ونتناول العشاء ثم نعود إلى قلعتنا في القسم الداخلي .

ـ سعد: (يغمز فارس) لندرس الفلسفة ..!

ـ فارس: يا صديقي إن أعجبك الدرس أو لم يعجبك فأنك سوف تقدم الامتحان، وقد يقرر هذا الدرس الذي أعترف بأنه سخيف مصيرك، أعتبرها مثلما تريد، ولكن يجب أن تدرس، ورأيك بأستاذ المادة لا يقدم ولا يؤخر ..

ـ سعد: فعلاً .. وهذا يغيظ إلى درجة الانفجار، أن اشعر أن رأي ليس مهماً، ولكن علي رغم ذلك أن أدرس وأن أردد كالببغاء ..

(تدخل فتاتان إلى النادي .. تتقدمان إلى طاولة الأصدقاء .. آمال وساهرة)

ـ آمال: مساء الخير .. أراهن أنكم تتجادلون أين تمضون أمسية اليوم .. أليس كذلك ..؟

ـ أحمد: لا .. هذه انتهينا منها، ووصلنا إلى حل يرضي الجميع ..!

ـ ساهرة: وما هو هذا الحل الفنتازي الذي يرضي الجميع ..؟

ـ أحمد: قررنا أن نتسكع .. حتى تكل أقدامنا ثم تعود إلى درس الفلسفة .

ـ آمال: ومن صوت مع ومن صوت ضد هذا المشروع ..؟

ـ سعد: لا يوجد مع ولا يوجد ضد

ـ ساهرة: كيف ..؟ قناعة جماعية ..!

ـ نبيل: لا .. توصلنا إلى هذا الحل باعتباره حلاً أوحداً.. أي بالتزكية ..!

ـ بلال: مع اعتراضات طفيفة، خفيفة، مكتومة، مهموسة تكاد لا تسمع

ـ سعد: (بصوت واطئ) أحمد يقول الكلام بصوت عال ممنوع، حاصل التصويت 9،9،9،9،99 إلى أخره تسعة !

ـ فارس: وهل ترغبون بمرافقتنا بالتسكع ..؟

ـ ساهرة: وهل تظن أننا لا نتمنى ذلك .. ولكن ..

ـ سعد: (مقاطعاً) معروف .. معروف ، فهذه أمنية أخرى مصادرة، ثم تطالبونا بالمساواة ..!

ـ ساهرة: لا فائدة من مناقشة أمر يقع خارج قناعتنا الشخصية ..

ـ أحمد: تستطيعان على الأقل مشاركتنا طعام الغداء ما رأيكما ..

ـ آمال: هذه فكرة حسنة

ـ سعد: الحلول التوفيقية تلاقي الاستحسان دائماً ..

ـ ساهرة: مشاكلك يا سعد لن تعرف النهاية .. أنت لا تعرف الهدوء ولا التفكير بصوت هادئ ولا الهمس.

ـ سعد: بالعكس .. تعالي أهمس في أذنك شيئاً ..

(يهمس في أذنها شيئاً)

ـ ساهرة: (تشيح ساهرة بوجهها خجلاً، وتظهر غضباً لطيفاً) يا أحمد كيف فشلت في تهذيب صديقك الملعون هذا ..!

ـ أحمد: (يضحك) لا فائدة .. فهو هكذا .. ومن المستحيل أن أتصوره إلا هكذا ..

ـ فارس: (يمزح) إذا كف سعد عن الحماقات والخبث، فإنه لن يكون سعد .. اسألوني أنا

ـ سعد: (يقف وكأنه يمثل دوراً، شاهراً سيف وهمي) أقسم لكم بأخلاق فرسان القرون الوسطى أن أبقى مخلصاً لمبادئ الحق والصدق وقول الحقيقة بلا أقنعة

ـ ساهرة: (تمزح) وإن كان قول الحق وقاحة ..؟

ـ سعد: الحقيقة السافرة هي أفضل من التلفيق المهذب، والحقيقة لا تكون وقحة وإنما هي تعري الوقار المزيف ..

ـ أحمد: (مقاطعاً) كفى رجاء، وصلنا للتعرية، قف وإلا ستكون وقح فعلاً

(يضحكون جميعاً)

ـ بلال: فلنطلب الطعام .. ماذا تأكلون ..؟

(يتحادثون بينهم بصوت غير مسموع)

ستارة

الفصل الثاني

المشهد الثاني

(أحمد وسعد يعودان إلى غرفتهما في القسم الداخلي)

ـ سعد: ما زال الوقت مبكراً، ولكني سأفعل كل شيئ إلا دراسة الفلسفة ..!

ـ أحمد: (يضحك) لا تخلق بينك وبينها عقدة، في النهاية لا بد من أن تدرسها لأنك ستقدم الامتحان ولا بد لك أن تنجح وتنهي الدراسة.

ـ سعد: صدقني لا أدري أيهما أفضل، البقاء هنا كطلاب في الجامعة أم التخرج والتبعثر هنا وهناك.

ـ أحمد: لا بد أن ننتهي من مسألة إرهاق غوائلنا مالياً، ثم التخلص من القسم الداخلي الذي بت لا أطيقه

ـ سعد: فعلاً فأنا لم أعد أتحمله أيضاً، أنه يتراءى لي كالسجن، ألم تلاحظ حتى التسكع أفضل من العودة إلى هذا القسم.

ـ أحمد: لاحظ، كم عقدت اجتماعات وكم تشكلت لجان من أجل تحسين المعيشة داخل القسم، ورغم وجود صندوق الشكاوى في مدخل البناية، إلا أن الحياة فيه لا تطاق، تصلح الأحوال يوماً أو يومين، لتعود أسوء مما كانت، مع أن عمل اللجان كان بعض الأحيان إيجابياً، ومصروفات القسم وتخصيصاته ليست قليلة، كأن هناك لغزاً أو سراً غير قابل للحل.

ـ سعد: لا لغز ولا من يحزنون، المسألة وما فيها أن الإدارة..

(يفتح باب الغرفة ويدخل باسل)

ـ باسل: (بغضب، يرمي كتاباً من يده على المنضدة) أنا سأخرج من هنا حتى لو تطلب الأمر أن أنام على أرصفة الشوارع.

ـ أحمد: (مهدئاً) على مهلك .. ما لذي حصل .. أهدأ (مخاطباً سعد) ضع الغلاية على النار لنتناول القهوة أو شاي .. أجلس باسل .. أجلس رجاء

ـ باسل: إن مدير القسم الداخلي لا يطاق فعلاً، إذا جئت إلى القسم مبكراً يغمز بخبث ويقول أنت اليوم وحيد، أين أصدقائك، وإذا تأخرت يقرعني بأني سأرسب السنة لا محالة، أما إذا عدت مع صديق لنجلس في غرفتي فأنه يسترق السمع من وراء الباب وينظر من ثقب المفتاح..!

ـأحمد: (مهدئاً) خذها بالصبر ..

ـ سعد: اسمع النصيحة يا أخي، اسمعها من فتى بني يقضان سليمان الحكيم، أنه يعرف لغة الطيور والأنس والجن ..

ـ أحمد: يا صديقي .. يا صديقي، أنا أعاني مثلكم، ولكن حيث لا تستطيع أن تفعل شيئاً، عليك بالصبر، نحن نسكن القسم الداخلي ولا ندفع شيئاً مقابل ذلك، ومع ذلك فإن مصروفنا يرهق أهلنا ..

ـ باسل: ومن قال لك نحن لا ندفع، إننا ندفع الثمن باهظاً من أعصابنا قلقاً وخوفاً من الطرد، أليس هذا بثمن .؟

ـ أحمد: سيضل هذا في النهاية أفضل من لا شيء، أنت تقول تسكع .. ولكن كيف نتسكع ..؟

ـ باسل: لا يهم أين وكيف، المهم أن أتخلص من هذا الذل ..

ـ سعد: لا .. هذا غير مقبول في عرف صديقنا العزيز أحمد ..

ـ أحمد: اسمع يا سعد، نحن فلاحون جئنا إلى المدينة لا نحمل معنا سوى طيبة قلوبنا ..

ـ سعد: (مقاطعاً) بل قل سذاجتنا ..

ـ أحمد: (مكملاً) وتعلمنا في المدينة أشياء كثيرة.. درسنا العلم، ولا بد أن نجد طريقنا بين علم المدينة وذكائها، وبين نقاء الفلاح وصبره.

ـ باسل: وإلى متى ..؟

ـ أحمد: لا يوجد متى في الحياة .. في نهاية هذا العام سنتخرج ..

ـ سعد: (مقاطعاً) لنواجه متاعب جديدة..

ـ أحمد: (مقاطعاً) سنعمل على حلها

ـ باسل: (مقاطعاً) بدون طائل طبعاً ..

ـ أحمد: (ينهض من كرسيه غاضباً) يا أصدقاء لا يوجد شيء جاهز في الحياة .. إن الأشياء في الحياة ليست كعملية شراء حذاء تتم ببضعة دقائق حسب قياسك وذوقك، أنه التحدي، يطرح عليك تحدياً جديداً، ثم ستكون هناك حالة جديدة لها مساوئها التي ستطرح بدورها تحدياً جديداً..

ـ سعد: رحم الله أجدادنا الفلاحين عندما كانوا يرددون موت يا حصان حتى يأتيك الربيع

ـ أحمد: لا بد من الصبر ولكن مع العزم والتصميم

ـ سعد: (مقاطعاً) بالأمس كنت نفسك غاضباً واليوم تتحدث أنعم من الحرير ..!

ـ أحمد: (مقاطعاً) أنا لا أنكر أن الغضب يعتريني والسخط، ولكن لا بد أن يكون كل شيء تحت السيطرة، وإلا فأننا سننتهي إلى حالة من الإحباط سلبية مطلقة وعبثية سخيفة ..!

ـ سعد: (يغمز بخبث) أني أرى ذلك بفعل تأثيرات عوامل خارجية على الواقع الموضوعي..

ـ أحمد: (مقاطعاً) سعد إياك والتخابث، لماذا لا تؤثر عواملك الخارجية ..!

ـ سعد: (يضحك) عواملي الخارجي أضعف من أن تؤثر علي، بالعكس أنا أؤثر عليها ..

(ينتهي سعد من صنع الشاي ثم يجلس الأصدقاء يشربون الشاي)

ـ باسل: كنت في المدينة حاولت عبثاً أن أجد فلماً جيداً، الأفلام سخيفة ولكن العجب أن الإقبال عليها من الجمهور شديد ..

ـ سعد: ولم لا .. فقد فسد ذوق الكثيرين، أو قل صاروا يحبون مثل هذه الأفلام، القبضة الحديدية، المسدس المنتقم، أفلام لا تحتاج إلى تشغيل للدماغ .

ـ باسل: ثم شاهدنا مشهداً حقيقياً ..

ـ سعد: تقول أن لم تدخل السينما

ـ باسل: السينما انتقلت إلى الشارع .. تصور، اشتباك بالأيدي والأرجل (يقلد حركات الكاراتية) تلك التي يسمونها ..

ـ سعد: الكاراتيه ..

ـ باسل: نعم، معركة نشبت، في الحقيقة معركة من جانب واحد، إذ ترجل فجأة ثلاثة شبان من سياراتهم وانهالوا ضرباً على صبية يبيعون الموالح على قارعة الطريق وأوسعوهم ضرباً ثم عادوا إلى سياراتهم يقهقهون وانطلقوا بها كالصاروخ ..

ـ أحمد: والناس، ماذا فعل الناس ..؟

ـ باسل: لا شيء، البعض كان يتفرج على السيارة ويحزرون نوعها، والبعض الآخر يتطلع إلى حسناء كانت جالسة في السيارة، وبعض آخر كان يسير دون اكتراث وكأن شيئاً لم يكن ..

ـ سعد: هكذا ببساطة ..؟

ـ باسل: نعم، بل ومرت فتاة غمزت لأحد الشبان الثلاثة وقالت لصديقتها " يجنن " .

ـ أحمد: المهم، نحن لم نسألك هل تناولت عشاءك ..؟

ـ باسل: لا .. فقد شعرت بالقرف من كل شيئ وعدت مكرهاً إلى القسم الداخلي الذي بدا بصورة ما ملاذاً لي ..

ـ أحمد: هيا يا سعد هل تستطيع أن تهيأ شيئاً لباسل

ـ سعد: نعم، إليك هذه الوجبة الشهية: " إن البراكين والزلازل تنتشر على وجه الكرة الأرضية كما ينتشر على وجوه الشبان المراهقين حب الشباب، وعندما تنضج البطاطا فإنها تفقأ وجه الأرض، لا يوجد حيوان في العالم لا يتكاثر ..

ـ أحمد: ما هذا يا سعد ..؟

ـ سعد: (متابعاً) ومع أن الفئران هي حيوانات حقيرة، إلا أنها ذكية، والبلابل مغردة لطيفة، والببغاوات غبية تعيش مأساة داخلية دفينة، والحمار عبقري ..

ـ أحمد: كفى يا سعد .. رجاء

ـ سعد: هذه أطيب وجبة عشاء ... هراءلوجيا ..

ـ أحمد: كف يا سعد عن هذا وقدم شيئاً لباسل

ـ سعد: لماذا لا تقول لأستاذ الأيديولوجيا أن يكف عن هراءه أو عبثه ..؟

ـ باسل: أعترف أن وجبة سعد كانت صحيحة وأشهى من درس الأيديولوجيا ..

ـ سعد: يا باسل، هل تشتهي شيئاً يا صديقي العزيز ؟ قل لي أيها الإنسان الطيب ماذا تشتهي .. السينمات .. سخافة لوجيا .. هراء لوجيا .. عرفت ماذا أقدم لك .. أنها الأكلة الوحيدة التي تناسبنا .. فصولجين ..

ـ باسل: وما هي فاصولجين هذه ..؟

ـ سعد: أنها فاصوليا زائداً أوكسجين.

ـ باسل: وما العلاقة بينهما ..

ـ سعد: يبدو أنك لا زلت تعيش في أجواء المعركة .. غازات أخي غازات ..

ـ باسل: (يضحك) كما تشاء المهم شيئاً يسد الرمق

ـ سعد: أنظر إلى هذه البساطة .. باسل .. أنت ما زلت فلاحاً ترضى بأي شيء ..

ـ أحمد: هلا كففت عن عبثك سعد .. وكأنك سكران ..!

ـ باسل: ها .. نسيت أن أقول لكما شيئاً .. بعد أن أقلعت سيارة الشبان، مر على الرصيف رجلان تبدو عليهما آثار حالة السكر ..

ـ سعد: سكارى .. في وقت مبكر نسبياً .. غريب ..

ـ باسل: فعلاً .. وما أقنع الناس بحالتهم أنهما كانا يتحاوران حوراً غريباً ..

ـ أحمد: كيف ..؟

ـ باسل: كان أحدهم وهو قصير نسبياً يقول للثاني وهو طويل القامة: أرأيت ؟ فيجيبه الثاني كلا لم أرى شيئاً ، فدهش الأول وسأل من جديد: طيب ألم تسمع شيئاً ... فأجابه الثاني : كلا لم اسمع ... فقال له الأول كيف لم تسمع مع أن كل شيئ كان واضحاً، فأجابه الأول وهو يقهقه بصوت عال: لقد عطلت كافة حواسي ..!

ـ سعد: يبدو أن هؤلاء ليسوا بسكارى ..

ـ باسل: ماذا إذن .. كان أحدهم يلقب الثاني بملك الفهم والثاني بملك الحلم ..

ـ سعد: يبدو لي أن نار الألم قد حرقهم إلى حد الشواء، ألم تشم فيهم رائحة الشواء ؟

ـ باسل: كانا غريبي الأطوار والتصرفات ..

ـ سعد: إذن كنت تركز على الظواهر السطحية ..!

ـ أحمد: سعد .. دع رجاء باسل يكمل طعامه ..

ـ سعد: وهل منعته من أكل الطعام .. بالعكس لقد أحضرتها بنفسي له ..

ـ باسل: لا تهتم أحمد .. دعه فقد تعودنا على سياط سعد ..

ـ أحمد: والآن ألا تريدون أن تدرسوا .. يبدو أنكم نسيتم أن الامتحانات قريبة ..

ـ سعد: وهل تستطيع ذلك ..؟

ـ أحمد: يجب أن نفعل ذلك ..

ـ باسل: ماذا نفعل ..؟

ـ أحمد: أن نتابع ..

ـ باسل: ماذا نتابع ..؟

ـ لا بد لنا أن ننجح .

ـ سعد: وهل نستطيع ..؟

ـ أحمد: لا بد ..

ـ سعد: هيا إذن .. أفتح لنا الكتاب وأقرأ

(يفتح أحمد الكتاب ... باسل وسعد يصغيان .. موسيقى تصويرية)

ستارة

الفصل الثالث

المشهد الأول

(المصطبة تحت الشجرة في الحديقة، عمود النور ينير المكان،
طريق أما المصطبة، يدخل أحمد وآمال المسرح وساهرة وسعد ..
يتحادثون أحاديث غير مسموعة أو مفهومة، حتى يصلون تحت الشجرة)

ـ ساهرة: رجاء افعلوا أي شيء .. ولكن دعونا من الأمسية الشعرية ومعرض الفن الحديث

ـ سعد: لماذا ينتابك الرعب من مناقشة الموضوعات الجادة ..

ـ ساهرة: لأنها لا توصلنا إلى شيء.

ـ سعد: (ساخراً) سأحدثكم إذن عن سفرتي الأخيرة إلى جزر الكاريبي وهاواي ..

ـ ساهرة: أنت لا تعرف سوى السخرية، أو تصيب الصميم فتجرحه ..

ـ سعد: (مواصلاً السخرية) سأكتب إذن رواية وسأسميها مذكرات جرح ..

ـ أحمد: يا ساهرة الأشياء تبدو هكذا .. إما مؤلمة أو أنها تدعو إلى السخرية

ـ آمال: أنا لست مختلفة معكم، ولكن لماذا نؤلم أنفسنا مجاناً .. أليست هذه سادية ..؟

ـ سعد: إذن لماذا تفضلتم ووافقتم على الذهاب إلى الأمسية الشعرية ..

ـ آمال: أنا اعتقدت أننا سنقضي وقتاً طيباً ..!

ـ ساهرة: والنتيجة أننا سممنا يومنا ..

ـ آمال: لم أكن أتصور أن شاعري الأفضل ينحدر إلى هذا المستوى من الوضاعة .ز

ـ ساهرة: وأنا آسفة حقاً، إذ أقنعتكم بمشاهدة معرض الفن الحديث ..

ـ سعد: (ساخراً) ما هذه الاعترافات الخجولة ..!

ـ ساهرة: بصراحة، فقد كان يستعصي علي الفهم، كيف تنقلب الألوان الجميلة إلى قبح ..؟

ـ أحمد: هناك قانون فيزيائي يقول: كل يذوب، وكل يتجمد .. حتى الحديد يذوب في الدرجات العالية، وحتى الكحول والزئبق يجمد في الدرجات الواطئة ..

ـ آمال: وإذن، فالانحراف في المزاج الفني قابل للانحدار

ـ سعد: وقبل أنحدار المزاج تنحدر الأخلاق

ـ أحمد: ولماذا الأخلاق، إن مصالح الفرد تتغير، وعندما تتغير فإن أساليبهم المعبرة عنها هي الأخرى تتغير

ـ ساهرة: أنت تريد القول أن مصالحهم أصبحت أنانية .. ضيقة

ـ آمال: ويقال نفس الشيء عن الشعر، وعن كل عمل فني .. أليس كذلك ..

ـ سعد: بالتأكيد، وهذه عملية ليست نادرة، فقد كان جون شتاينبك (3)يوماً كاتباً عظيماً يكتب للناس، ولكنه حكم على نفسه بالتفاهة إذ أنقلب على حين غرة ومات مغموراً ..

ـ آمال: ولكن كيف يكتب شاعر عظيم أو كاتب تفاهات ..

ـ أحمد: عندما ينقلب هو نفسه إلى تافه .. أو ينفصل عن الجوهر الإنساني في شعره ..

ـ سعد: هذا صحيح تماماً، فقد كتب أحد المفكريين، حتى الشجاعة التي هي في مقدمة الفضائل الإنسانية تصبح وحشية إن هي تخلت عن المضمون الإنساني، فالحيوانات المفترسة لا ينقصها الشجاعة، ولكنها وحشية تتبع شريعة الغاب.

ـ أحمد: لاحظ يا سعد، لقد كان مطلب الفتيات الأبتعاد عن مناقشة أحداث اليوم، ولم يسحبنا إلى الحديث إلا هن أنفسهن ..!

(يضحكون)

ـ ساهرة: طيب سنغير الموضوع، ماذا ستفعلون ، لقد أصبح تخرجكم وشيكاً ..

ـ سعد: (يمزح) ساهرة مصممة على خوض المعارك الصعبة

ـ ساهرة: وهل الحديث هن المستقبل يعني المعارك الصعبة ..؟

ـ سعد: وهل تعتقدين أن ثمة ما هو أصعب منه ..؟ إنني أرى بيني وبين ما أريده سبعة بحار من نار ..

ـ آمال: لا تبالغ، بالتشاؤم يا سعد، فنحن إذا فقدنا الأمل، سنفقد القدرة على الحياة، ويغدو الحديث عن كل شيئ ترفاً لا معنى له ..

ـ أحمد: فعلاً لا يجوز لنا أن نتخلى عن الأمل ..

ـ سعد: الأمل ..؟ أنا لا أتحدث عن الأشياء بشكل مطلق أو أجردها من الاحتمالات .. و ..

ـ أحمد: (مقاطعاً) لا أخالفك أن الكثير من الأشياء أصابها التلف والعفن، ولكن حركة التاريخ شيئ لا يمكن التصدي له، والحياة تطرح البدائل .. لاحظ حتى خلايا جسم الإنسان تتجدد تلقائياً ..!

ـ سعد: إذا سرنا برأيك حتى النهاية، فلنسلم إذن بالحتمية التاريخية .. وهو نوع من القضاء والقدر ..

ـ أحمد: (مقاطعاً) مهلاً ... مهلاً من قال لك ذلك .. الحتمية التاريخية ليست استسلاماً، كل ما أردت قوله أن الحياة تسير، أنظر أن مجرد تسليم الإنسان بجدول الضرب هو بداية لإيمان الإنسان بالعلم، كذلك تدعو قوانين الفيزياء، أريد أن أقول لك .. لا داعي للتشاؤم، كن عنصراً خير وإيجابيا ..

ـ سعد: (مقاطعاً) كان هناك رجل أسمه خير اختطفته قبائل أكلة لحوم البشر في الغابة ..

ـ ساهرة: (بتبرم) تفضلوا ها هو من جديد يرسم لوحة سيريالية ..

ـ آمال: يا سعد، المسألة وما فيها أننا ...

ـ سعد: (مقاطعاً) لا نعرف ماذا نريد ..

ـ ساهرة: ماذا تريد أن نفعل ..؟ نحن بشر طيبون ..

ـ سعد: (مقاطعاً) أغتالتنا المدينة .. جئنا إليها بمشروع حير فخنقتنا قوانينها، وأصولها، والممكن وغير الممكن ...!

ـ أحمد: لقد تحدثنا في ذلك ألف مرة يا سعد، القضية ليست مرهونة بوعيك الشخصي، أو برغبتك، وإلا قل لي كيف بأمكاتني أن أغير أنا ما توارثته، وآمال ووالدها وعمها وإخوانها من تقاليد، المسألة بكل وضوح تفوق أمكاناتي الشخصية... لا بد أن يساهم الزمن في المسألة..

ـ سعد: (ساخراً) إذن .. ونمسح على أكتافهم ..

ـ أحمد: المسألة لا تبدأ هنا ولا تنتهي هناك .. غداً سوف نخوض معترك العمل وسترى وتواجه عقليات تنتمي إلى القرون الماضية، فماذا ستعمل ..؟ هل ستفصل وضعاً على مزاجك ..؟

ـ سعد: من يكترث لي أساسا.. أنت باشرت بخطوات عملية بالتقدم نحو آمال، أما أنا فمجرد التفكير بموضوعنا أنا وساهرة يصيبني بالإحباط..

ـ أحمد: ولماذا ..؟ لا بد أن نتقدم نحو هدفين ولو خطوة تجرأ وتقدم بدلاً من التشاؤم ..

ـ آمال: ولكن دون سخرية وتهكم ..

ـ سعد: لو بقيت مئة سنة في المدينة فلن أستطيع أن أقلد مشية الزرازير التي يمتاز بها أبناء المدن، ستفضحني حتى عيوني وقسمات وجهي .. أنا لا أنتمي إليهم..

ـ آمال: لن يطالبك أحد بالانتماء إليهم..

ـ سعد: وكيف لا .. فهم إن قبلوا أن يمدوا يدهم ليصافحونني فلن يعيدوا لي كفي بخمسة أصابع..

ـ ساهر': (بغضب) أرجوك أهلي ليسوا كذلك ..

ـ سعد: أنا لا أتهم أحداً معيناً .. ولكن هكذا أخلاق أهل المدن هذه الأيام ..!

ـ ساهرة: تقصد سراق ..

ـ سعد: هم يسمونها شطارة، نباهة، بزنس Besness

ـ آمال: ولكننا يا سعد مضطرون أن نعيش هذا الوسط ..

ـ سعد: أن نعيشه شيء، ونعايش معه شيء آخر، ونعتاش منه له معنى آخر، كما أن هناك فرقاً بين الرزق والارتزاق ..

ـ ساهرة: أنت تهول الأشياء يا سعد وتمنحها حجماً كبيراً

ـ سعد: هذا هو حجمها الحقيقي .. أنا لا أسطح الأشياء

ـ ساهرة: ما بالك يا أحمد لا ترد علي صديقك ..؟

ـ أحمد: وبماذا أرد عليه .. أنه يقول الحقيقة ..

ـ ساهرة: الحقيقة ..؟

ـ أحمد: نعم، إن الأمور سيئة إلى هذا الحد فعلاً ..

ـ سعد: (بمزح) تحياتي يا صديقي سليمان الحكيم .. فتى بني يقظان ..!

ـ ساهرة: مع أهلي سيئة إلى هذا الحد ..؟ أنا لا أستطيع أن أتصور هذا ..

ـ أحمد: ولماذا تربطين كل شيء بنفسك فتثورين، ثم بأهلك فتتأثرين، وكأن سهام سعد تتجه إليك وإلى شخصك .. الأمر ليس كذلك بدقة ..

ـ آمال: ولماذا علينا يا ساهرة أن ننزه الناس، وإلا فلماذا نتوجع نحن وغيرنا وننئن ..

ـ ساهرة: أنا لا أدعي أننا نزيهين، ولا أدعي أن أهلي لا يسيئون فهم بعض الحقائق، إلا أن سعد متطرف جداً ..

ـ أحمد: نعم في ذلك بعض الحق، ويجب الاعتراف بأن سعدا يتطرف أحياناً تطرفاً غير مقبول، إذ لا ينبغي أن نتصور أن جميع الناس يجب أن يكونوا على شاكلة واحدة

ـ سعد: (مقاطعاً) ولكن يا أحمد ..

ـ أحمد: دعني يا سعد، إننا نخوض معركتين تدور رحى الأولى مع ذاتنا، والأخرى مع محيطنا والكثير من المفاهيم التي هي واضحة بالنسبة لك، ولكنها غارقة في ضباب كثيف أو مشكوك بها، ولكن هذا لا يهم الآخرين كثيراً، أنتما تريدان الزواج ولكن لأهلها رأي آخر، إذ أنك رجل فقير، وبهذا فأنت تنسف المبدأ الأول بالنسبة لهم..

ـ ساهرة: آه لو كان ليناً، لكنت استطعت إقناع أهلي بل وبمساعدتنا مالياً

ـ سعد: (بحدة وغضب) أنا أرفض أن أكون موضع مساومة

ـ ساهرة: لماذا تفهم الأمور بصورة حادة ..

ـ سعد: أسمعي يا ساهرة .. أنا فقير وكوني على ثقة بأني فخور بذلك، فذلك يعني أننا لم نمد يدنا إلى جيوب غيرنا، وسأبقى فقيراً حتى آخر حياتي لأنني أصر على البقاء فقيراً، لأن الثراء شيء معيب ..!

ـ ساهرة: ولكن الإنسان يطمح إلى تحسين أوضاعه

ـ سعد: نعم .. ولكن في حدود المشروع وضمن تقدم المجتمع والناس .. لا أن يتحول ذلك بحد ذاته إلى هدف تسترخص من أجله كافة القيم ..

ـ أحمد: لقد ذهبتم بعيداً جداً .. لا أعتقد أن ساهرة تخالفك في الجوهر والتفاصيل ..

ـ سعد: (مقاطعاً) بعض التفاصيل تبدو مهمة ..

ـ أحمد: بالمناسبة هل قرأت عليكم قصيدتي الجديدة ..

ـ سعد: وهل لديك جديد لا أعرفه يا فتى بني يقظان ..؟

ـ أحمد: أسمع مقطعاً منها

تطول في ليل المخلص عذابات الظهيرة
وتطرح الأشياء تبدو صغيرة
مشقق الشفتين
عارياً أعزل
مقيداً في حدقة الحقيقة
تحلق غربان الموت فوق هامته
وتطوف حوله ثعالب وأباطيل
بالسيف المكسور يقاوم
بالجسد المتعوب يقاوم
بالروح التي لا تعرف إلا المقاومة
يقاوم

ـ سعد: رائعة أحمد ..

ـ ساهرة: أني أتخيلها لوحة جميلة .. الرجل المقاوم

ـ أحمد: رجل من آخر سلالات سكان الجبال، تاه في صحاري الملح ..

ـ آمال: كأنني أتعرف عليك من جديد .. يا ليتنا تسكعنا طوال يومنا ..

ـ أحمد: (لآمال) هل أنت سعيدة ..؟

ـ آمال: أني أضم سيفي إلى سيفك ..

ـ أحمد: ساهرة ... تطلعي إلى الغد .. ثقي بالمستقبل، وأنت يا سعد ...

ـ سعد: أنا أثق بالحياة ... وبالناس الشرفاء ..

ـ ساهرة: وأنا أيضاً أثق بالغد .. لا بد أنه سيكون أكثر إنصافاً ...

(يتسلل السكرانان إلى المسرح ويختبئان خلف شجيرات)

ـ أحمد: هلموا لنعلن أتحادنا الأبدي..

ـ سعد: أنا أرى..

ـ أحمد: (مقاطعاً) أنت ستكون معنا ..

ـ سعد: (يمزح) أنا يهمني أن أعرف ركاب سفينة نوح هذه ..

ـ ساهرة: ها هو يسخر مرة أخرى ..

ـ أحمد: يا سعد .. نحن طيبو القلب .. تعال

ـ سعد: إلى أين

ـ أحمد: سفينة تنتظرنا ..

ـ سعد: حقاً نحن في عصر الفضاء .. ولكن مالحيلة إذا كان مدير القسم الداخلي يعيش بعقلية القرون الوسطى ..

ـ أحمد: دعنا من كل ذلك ..!

ـ سعد: كيف ..!

ـ أحمد: نتحد بوجه الثعالب والأباطيل

ـ سعد: بسيوفنا المكسورة ..؟

ـ أحمد: نعم بسيوفنا المكسورة، ولكن مسلحين بطيبة القلب التي لن نتخلى عنها وبالثقة بالمستقبل والحياة والغد وشعبنا ..

ـ سعد: ومادة الأيديولوجيا ..؟

ـ أحمد: هذه أشياء سننتهي منها ..

ـ سعد: ويبدأ كفاح جديد.. قمع مدير الدائرة، وسكرتيره، والمدير العام، وحاشيته ..

ـ أحمد: أسمع يا سعد .. أما دخلنا سوية أماكن موبوءة وخرجنا منها نحن أنقياء ..؟

ـ سعد: بلى .. ولكن ماذا تريد أن تقول ..؟

ـ أحمد: أقول ... لا أكذب عليك وأقول لدي طريقة سحرية .. ولكني متأكد بأننا سنبقى غير متسخين وأنقياء ..

ـ آمال: بل ستكونون أقوى .. فأنتم استفدتم من تجربة المدينة، لم تسحقكم، ولم تبهركم .. ولم تستلموا لها ..

ـ ساهرة: إذن فلنؤسس مملكة طيبي القلب ..

ـ سعد: لا أريد أن أخرب معكم متعتكم النظرية الشفوية هذه .. أنا أعتقد..

ـ أحمد: (مقاطعاً) لا وجود لجمهورية أفلاطون.. أعرف ما ستقوله .. لا وجود لإيتوبيا خرافية

ـ آمال: لا .. لا .. لا ينبغي أن نكون متشائمين ولا متفائلين سذج، بل واقعيين ..

ـ ساهرة: سنبني خلية طيبة ..

ـ سعد: (ساخراً) في كوكب الزهرة ..

ـ ساهرة: (بسخط) لاحظوا .. كلما أبديت رأياً يهاجمني بتشاؤمه وسخريته ..

ـ سعد: لإنك مفرطة في الخيال والغيبيات ..

ـ أحمد: هيا بنا .. لنأخذ عشاء فقراء على الطريق، وإلا سنبقى حتى الصباح نناقش المعقول واللامعقول والمناقشة مع سعد لا نهاية لها ..

(يضحكون ثم يغادرون المسرح مشياً ببطأ يتكلمون بأصوات غير مسموعة ويضحكون)

(يخرج السكرانان من وراء الشجرة ويقفان أمام المصطبة ذاتها)

ـ الأول: هل لاحظت أنهما نفس الشاب والشابة اللذان رأيناهما في المرة السابقة .؟

ـ الثاني: نعم، ويبدو أن أصدقائهم معهم هذه المرة، خسارة لم نسمع حديثهم من البداية ..

ـ الأول: آه، لكم أنت ولوع بالتنصت إلى الناس

ـ الثاني: بحسن نية يا صديقي .. بحسن نية، قل أنها فضولية، قل أنها حشرية، ولكن بحسن نية..

ـ الأول: لو أجيز لنا أن نلعب أدوار هؤلاء الشبان فمن تختار منهم.

ـ الثاني: قل لي رأيك أولاً ..

ـ الأول: أنا أرى أن أحمد أكثر رزانة ومصيب في معظم الأحيان، ولكن سعد بطرحه الشكوك يعجبني .. أما الفتيات، فآمال إنسانه واقعية وواعية، أما ساهرة، فاستغرب كيف أحبها سعد، فهما متناقضان تقريباً، فهي من النوع الذي يصعب سلخه من واقعه السخيف ..!

ـ الثاني: (ضاحكاً) يا ويلك من ظالم .. سلخ دفعة واحدة ..

ـ الأول: قل لي رأيك.. فقد سمعت رأي

ـ الثاني: لم يعجبني أحد منهم، فأحمد رغم وعيه الواضح إلا أنه مفرط في طيبة القلب .. رغم وعيه فأنه سيسقط ذات يوم في حفرة عميقة ..!

ـ الأول: آه .. أنه طيب القلب، فلا تنعق كالبومة خلفه ..

ـ الثاني: (مقاطعاً) لست أنا .. (يضحك) لست أنا من يرسم نهاية الأشياء والأحلام..

ـ الأول: ساهرة .. ما رايك بساهرة ..؟

ـ الثاني: (بسخرية) إنها حوووب (يمثل حيواناً مفترساً يريد التهام شيء) أنها تريد أن تلتهم سعد ومشاريعه وعالمه ومستقبله ... ومن الحب ما قتل ..(يغنيها على طريقة عبد الوهاب)

ـ الأول: (مقاطعاً) وآمال .. أريد أن أعرف رأيك بآمال ..

ـ الثاني: آه آمال .. أنها فعلاً رائعة ..

ـ الأول: (مقاطعاً) هل سيفلحون ..؟

ـ الثاني: (ساخراً) يفلحون .. كيف يفلحون ..؟على الصعيد الشخصي أنهم يلعبون لعبة خاسرة.

ـ الأول: (وقد أقترب منه الثاني، فينفض يده ويبتعد قليلاً ومقاطعاً) ولماذا خاسرة ألا ترى أنهم ينجحون ويتقدمون ..؟ بل وأنهم انتصروا إذ لم تتمكن المدينة من سحقهم ..

ـ الثاني: (يحتد) خاسرة .. قلت لك خاسرة .. ولو طاروا إلى السماء خاسرة .. أسمع يا صديقي أنهم طيبون ويحلمون بمشروع خير ..

ـ الأول: وهل هذا سبب للخسارة ..؟

ـ الثاني: طبعاً ... أنه ليس سبباً للربح

ـ الأول: لا .. إن التجربة زادتهم وعياً ..

ـ الثاني: تعال أدلك على ضحايا الثقة وطيبة القلب .. تعال إن طيبة القلب مرض خطير ..

ـ الأول: وهل أصبت به أنت ..؟

ـ الثاني: أوه ... عشرات المرات ..

ـ الأول: ولماذا لم تتعلم من تجاربك ..؟

ـ الثاني: يا لك من مغفل .. أنت تعتقد إن هذه الأشياء بيد البشر ..؟

ـ الأول: وإذن ..؟

ـ الثاني: المرء لا يستطيع أن يغير نفسه ببساطة، لذلك فأنا أريد نسيان كل شيء، وأبقى دائماً طوال وقتي سكراناً أو حالماً ..

ـ الأول: يا لها من نتيجة بائسة ..!

ـ الثاني: ولماذا تسميها بائسة ..؟ أليس ذلك أفضل من العذاب ..؟

ـ الأول: خسارة .. كان يمكن أن تتطور تجربتك وتكون مفيداً ..

ـ الثاني: خسارة لمن ..؟ لي شخصياً ..؟ لا تصدق أن هناك من هو اسعد مني ..

ـ الأول: هل تعدني بأنك لن تغضب إن قلت لك شيئاً ..

ـ الثاني: نعم ..

ـ الأول: أنا أعتقد أنك لست سعيداً .. أنت تكذب على نفسك قبل أن تكذب عليَ..

ـ الثاني: (يجلس على المصطبة بإعياء).. عليك اللعنة ..

ـ الأول: (مقاطعاً) لماذا .. أنت حاولت أن تنسى الواقع عبر تناول الكحول، وأنا صحيتك عبر الحقيقة ..

ـ الثاني: (ينهض ويسير بأستسلام) هيا .. لنمضي .. عليك اللعنة وعلى كل الحقائق ...

(يخرجان من المسرح)

(ظلام دامس في المسرح)

ـ صوت1: أشعل لنا شمعة في هذا الظلام ..

ـ صوت2: صه .. في هذا الوقت المتأخر ..؟

ـ صوت1: وهل نحتاج الشمعة إلا في الظلام ..

ـ صوت2: لن تحتاج لا إلى الشمعة ولا إلى غيرها .. الوقت متأخر .. عليك أن تنام ..

ـ صوت1: لا ... أريد أن أنام ..

ـ صوت2: ولماذا لا تريد أن تنام ..؟

ـ صوت1: أمس كنت متعباً .. غفوت لفترة قصيرة وصحوت مسروقاً فكيف أنام ..؟ الظلام يحيط بي وأنا خائف ..

ـ صوت2: خائف .. (يضحك) ما هذا الهراء ..

ـ صوت1: (يحاول أن يشعل عود ثقاب، الثاني يشيح بوجهه) من أنت ولماذا تشيح بوجهك عني ..؟

ـ صوت2: قلت لك أذهب هيا أذهب إلى النوم (بلهجة آمرة).

ـ صوت1: يا إلهي وكأنك لص الأمس، سأنادي عليك الناس ..

ـ صوت2: (ساخراً) أنت تهذي، والناس نيام .. اسمع يا هذا .. أنا لست لصاً، وأنت لم تراني .. يا أحمق اللصوص هم من أهل بيتك .. لست أنا ..

ـ صوت1: يا للمصيبة .. هل يعقل أن يكون اللص من بيتي ..؟

ـ صوت2: نعم .. هذه هي الحقيقة

ـ صوت1: ومن أنت ..؟

ـ صوت2: ما أنا سوى حارس .. مجرد حارس ليلي ..

ـ صوت1: وما نفعك إذا كنت تعرف اللصوص ولا تلقي القبض عليهم ..

ـ صوت2: اسمع .. بدأت بسؤال واحد، وانتهيت إلى أسئلة وكلها معقدة .. ألم أقل لك الأفضل أن تنام ..

ـ صوت1: نعم ... سأذهب، ولكني سوف لن أنام، سأقتلع جفوني حتى لا تنسدل على بصري .. سأبقى مثل السمكة عيناً لا تغمض ..!

ـ صوت2: (ساخراً) ديوجين في القرن العشرين .. اسكت لئلا يستيقظ أبن خلدون والجاحظ والمتنبي(4-5)

ـ صوت1: ومن قال لك أنهم نائمون .. أنهم جميعاً مستيقظون ..!

ـ صوت2: وما فائدتهم إذا كانوا لا ينطقون ..؟

ـ صوت1: يا لك من مغفل .. كيف لا ينطقون ..؟ بل إنهم يقررون كيف تسير الأمور في التاريخ ..

ـ صوت2: كيف .. كيف ..؟

ـ صوت 1: تعال أعلمك ..

(فجأة يملأ الضياء المسرح: كنَاس يكنس بمكنسة ذات يد طويلة أرض المسرح)

ستارة

الفصل الثالث

المشهد الثاني

(الشبان يجلسون في مقهى على الرصيف، الراديو يذيع موسيقى وأغان بصوت غير مرتفع)

ـ أحمد: منذ ثلاثة أيام وأنا أحاول أن أجد سعد دون جدوى، ولا أعرف أيم حل الدهر به ..

ـ بلال: غريبة مع أنكم تسكنون سوية .. فعلاً غريبة ..

ـ فارس: هذه مفارقة مؤلمة، كتب علينا الفراق حقاً، ها هي أيام الدراسة قد مضت كما تمضي الرياح... سريعة

ـ أحمد: نعم سنوات مرت، وها نحن مرة أخرى على الرصيف/ ماذا كانت تلك السنوات، محتواها .. هدفها ..؟

ـ فارس: إننا الآن في معترك الحياة العملية، وهنا سيكون المؤشر الحقيقي لكفاءة كل منا، أنت ستتقدم يا أحمد، لأنك كنت متفوقاً في الدراسة ..!

ـ أحمد: (مقاطعاً، وبمزاح) لا أظن ذلك، هناك مواهب كثيرة أفتقر لها ..

ـ بلال: (يمزح مع فارس) أنت يا صديقي العزيز تظن أن الجميع موهوبون مثلك ..

ـ فارس: (مقاطعاً) ها أنت تريد أن تحل محل سعد في السخرية .. ماذا دهاكم كأنكم لا تفرحون بتخرجكم، بل وكأن ذلك مناسبة للقنوط .. والحزن

ـ أحمد: (متابعاً): ولا تستحق الأحتفال.. أنا لست حزيناً بالطبع، ولكني أتهيب المعركة القادمة ..

ـ فارس: (مقاطعاً) ولماذا تفترض نشوب معارك يا أحمد، أنت تصور الأشياء أكبر من حجمها ..

ـ أحمد: لا .. لا .. أنا لا أعطيها حجماً مصطنعاً .. بل هذه هي طبيعة الأشياء .. ولا يحق الاستخفاف بها، أننا نواجه محيطاً جديداً لا نستطيع أن ننكر وجود الصراع فيه بين الخير والشر .. هذه فكرة بسيطة للغاية، لسنا مدربين على هذا النوع من العلاقات بعد ..

ـ بلال: نعم .. فكل شيء واضح، ويبدو أن كلاً منا قد أختار معسكره ..

ـ فارس: أووه .. لقد وصلتم إلى تقسيمها إلى معسكرات ..

ـ أحمد: هذه طبيعة الأشياء يا فارس ..

ـ فارس: تعوزكم حسن النية ..

ـ بلال: كل معاركنا السابقة خسرناها بسبب حسن النية ..

ـ لم يكن لدينا شيء أكثر من حسن النية وطيبة القلب.

ـ فارس: ولماذا أنا يحلفني التوفيق، ربما لأنني محظوظ ..!

ـ بلال: (مقاطعاً) وبعد ..؟

ـ فارس: اللباقة وحسن التصرف .. لماذا منذ اليوم الأول وأنا لا ألقى في الوظيفة إلا الاستحسان والتشجيع.. إن المدير العام الذي أعمل بمعيته يتمتع بنظرة ثاقبة إلى البشر ..

ـ بلال: (بسخرية) لا اشك في ذلك مطلقاً، فهو يربض في مكانه منذ سنوات عديدة، مع أن كل المؤشرات تشير إلى فشله الذريع في تحقيق التقدم

ـ فارس: (مقاطعاً بحدة) إن كنت تشير إلى الأختلاسات التي حدثت، فإنه أمر بأجراء تحقيق صارم ..

ـ بلال: صارم جداً لدرجة أنه انصرفت سنين دون أن تظهر نتائج ذلك التحقيق العتيد، كما مرت زوبعة فضيحة استيراد المكائن والمعدات التي تبين أنها عتيقة ومستعملة، مرت مرور النسيم على الزهور، فلم تزدها إلا نظارة على نظارة ..

ـ فارس: هذه هي المسألة، وهنا يكمن السر في عدم تقدمكم، أنتم لا تلاحظون سوى السلبيات ..

ـ أحمد: فعلاً، هذه علة خطيرة، أنك تقول الحقيقة لأول مرة .. ذلك أن الإيجابيات تطرح نفسها للناس دون حاجة للتطبيل عنها .. أما السلبيات فأنها تحتاج لمن يراها، وهي واضحة لا تحتاج لذكاء خارق ..

ـ بلال: (ساخراً) أنا أعتقد أن عيني صديقنا فارس قد تركزت على الامتيازات ورضى الوالدين والمدير العام ..

ـ فارس: وهل في حيازة ثقة المدير ودعمه عيب ..؟ إن مقاييسكم عجيبة فعلاً ..!

ـ بلال: (ضاحكاً) لا عجيب إلا الشيطان الرجيم أخي الكريم

ـ أحمد: ليس هناك شيء عجيب وغريب في جوهره، فكل شيء معروف، المسألة أساسا تكمن في القدرة على التعايش.. على التعايش بين الخير والشر بمعناه العام الشامل، ثم بتفصيلاته، وأنت تعلم أنني لست من المحبذين لخلق الصدامات حباً في المشاكسة، ولكني على استعداد لأن أفقأ عيوني على أن أوافق على باطل ..

(يأتي نبيل وباسل ويحيينا الأصدقاء بحرارة ويسألان عن أخبارهم بشوق وسرور)

ـ نبيل: عار عليكم أيها الخريجون المحترمون أن تمضي شهور دون أن نراكم ..

ـ أحمد: نصارع الحياة يا صديقي، والأحداث وإرادتنا ورغباتنا .. إنها معركة بكل معنى الكلمة ..!

ـ بلال: حيث مؤثرات أخرى بدل الدبابات والمدفعية والطائرات، إنها أسلحة غير مرئية، ولكن هديرها مسموع في العقل والقلب ..

ـ باسل: أنت على حق .. إنها معركة ضارية تدور رحاها ..!

ـ فارس: أنكم أساتذة في فن تكبير الأشياء .. وها أنتم قد خلقتم معركة وهمية ..!

ـ أحمد: لا توجد معارك وهمية .. إن الجثث مطروحة على الأرض .. فكيف يمكن أن تكون وهمية ..؟ لب المسألة وسداها يا صديقنا العزيز أنك لا تريد أن تراها لكي لا ترتب على نفسك مسؤوليات مادية وأخلاقية تجاه الضحايا .. المعركة موجودة ...

ـ بلال : (لفارس) إن هناك سيلاً من الامتيازات، في الحقيقة يصعب تجاهلها ...

ـ باسل: وبهذه المناسبة السعيدة، أبشركم أيها الأصدقاء الأعزاء، بأني تناولت أول عقوبة في حياتي المهنية السعيدة ..

(الأصدقاء يتساءلون بدهشة، وباسل يؤكد)

ـ باسل: نعم .. زمما لا يسعدني ولا يشرفني، هو أنني لم أفعل الخير أو الصحيح ..

ـ بلال: ولكن ....

ـ باسل: (متابعاً) إنني فقط رفضت الأمتثال لفعل الخطأ ..

ـ نبيل: يعني أنك عوقبت على فعل نصف الخير ..

ـ فارس: أي خير وأي شر، فيما يبدو لي أنك خالفت أوامر رؤسائك ..!

ـ بلال: (ساخراً) واكتشفاه .. ما كل هذا يا رباه ..!!

ـ باسل: ولكن مهلاً .. أين سعد ..؟

ـ أحمد: سألني الأصدقاء نفس السؤال، لا أدري إني لم أراه منذ ثلاثة أيام

ـ بلال: وماذا تتوقع ..؟ هل تخشى شيئاً ما ..؟

ـ أحمد: أنتم تعرفون سعداً .. أنه يترك باب الخيارات مفتوحاً، لا سيما تلك القاسية منها، أنه محبط، محبط بدرجة فظيعة ..

ـ بلال: أنه محق .. ومن لا يصاب بالإحباط ..؟ أن تجربته بكل جوانبها مريرة، جاء إلى المدينة نقياً ناصعاً كصفحة الثلج، وإذا بكل شيئ متسخ وموبوء .. فكان عليه أن يحارب على جبه نفسه وعلى جبهات الآخرين.. أنه متعب ..

ـ باسل: يحق لكل منا أن يعاني وأن يتألم من ثقل التجربة، ولكن ليس إلى الحد الذي يصيبه بالإحباط المؤدي إلى الشلل ..

ـ فارس: (ساخراً) شلل ...؟

ـ أحمد: الشلل بمعني أن تنعدم الفائدة من التجربة والعلم وتتوقف الممارسة عما يستحق تسميتها بتجربة ..

ـ نبيل: والآن ماذا نفعل ..؟ مالعمل ..؟

ـ أحمد: هذا سؤال كبير، قد لا يكون بمقدورنا أن نجيب عليه وحدنا .. أو بسرعة وارتجال..

ـ نبيل : وإذن ..؟

ـ أحمد: لا بد أن الظروف ستوفر معطيات جديدة تسهل علينا ما ينبغي أن تكون عليه الأمور ..

ـ باسل: إنني سأحمل هذه الإشكالات بعمل فردي وذي بعد ذاتي ..

ـ نبيل: وكيف ..؟

ـ باسل: أعتقد بأني سأنجح في تدبير مقعد للدراسات العليا في الخارج، أعلم أن هذا الحل مؤقت، ولكنه سيتيح لي فرصة التعلم والاستفادة من البحث وفسحة طويلة من الوقت لتفكير أعمق وربما أنضج .. ما رأيك يا أحمد ..؟

ـ أحمد: هذا أمر تقرره وحدك .. لا أحد يستطيع أن يمنعك أو تشجيعك .. على كل حال أنها فرصة لتعليم أعمق، ولكنها تبقى مسألة ذاتية، وبالنسبة لي فإن هناك احتمالين، إما أن تخسر نفسك، أو أن نخسرك نحن.. فإن عملية سفرك هذه وبهذه الطريقة إنما هي شبه فرار ... لحظة لا تتعجل الرد(كاد باسل أن يهم بالحديث) أنا لا أجردها كلياً من جوانبها المشروعى ..

ـ باسل: لا تعتقد إنني كنت سأحتج كثيراً على تسميتها لها بالفرار، ولا أرغب أن أناقش هل هي مشروعة أم لا، فأنا أعترف لك أن الأمر لا يخلو من ذلك كله، ولكن قل لي ماذا ستفعل أنت، وقصة غرامك السرمدي بآمال ..؟ أرجوك أن تغفر لصديقك تدخله بشؤونك الشخصية ..!

ـ أحمد: لا .. لا .. إنها ليست أمور شخصية إلى هذا الحد .. إني ما زلت أزحف بإرادة سيزيفية، ولن أقهر ..(6)

ـ فارس: عظيم، ها نحن جميعاً وجدنا طريقنا بهذه الصورة أو تلك، بهذا الشكل أو ذاك ...

ـ بلال: (مقاطعاً) أرجوك فارس، لا تلق على الأشياء أصباغا لا لون حقيقي لها، كلنا هاربون: فاروق، باسل إلى الخارج، ولكنه يعترف ضمناً أنع ضرب من الفرار، أحمد يقيم علاقة رومانسيه بآماله وهي تكاد تكون مستحيلة، أنت فررت بنفسك لا تعرف إلى أين .. أما أنا فسأسافر إلى المكان الذي جئت منه ... إلى القرية

ـ نبيل: أما أنا فإن المحنة ستطرح نفسها عليّ لاحقاً ..

ـ أحمد: (ضاحكاً ويحاول تغيير جو اللقاء) هيا .. إنها ليست ساعة للحزن، حتى لو كانت الأخيرة، لنضحك بفرح الأطفال كما في الأيام الخوالي ..

ـ باسل: ومن أين يأتي هذا الفرح ..؟

ـ فارس: أحمد على حق .. إنها ليست ساعة للحزن، فلنمرح ..

ـ نبيل: أنت تمرح لوحدك، طالما أنك تقرأ التقويم بالمقلوب ...

ـ فارس: (مقاطعاً) بحيلة المغلوب فآه ثم آه .. (7)

ـ بلال: (مقاطعاً)لا بحيلة المغلوب ولا من يحزنون، أنت تائه مختاراً لا إكراهاً ..

ـ فارس: (بنبرة حزن) مهما قلت لك ومهما بررت فلن يفيدني ذلك شيئاً .. إني سألتزم الصمت ..

ـ أحمد: يا فرس .. يا فارس .. أنت واحد منا على أية حال ..

ـ فارس: شكراً يا أحمد على مواساتك .. أنت صديق حقيقي، وإنسان رائع وطيب القلب (يجهش بالبكاء)

ـ نبيل: يا إلهي.. كم واسع الفراغ الذي يتركه يعد في مثل هذه المناسبات، أحمد .. كيف نجد سعد ..

ـ أحمد: سأبحث عنه الليلة وسأجده حتماً.. إني أعرف مكاناً لا بد أن يزوره ليلاً .. هيا لنذهب إلى اللقاء يا أصدقاء ..

(يودع الأصدقاء بعضهم، ويغادرون المسرح)
ستارة

الفصل الثالث

المشهد الثالث

(تفتح الستارة المصطبة تحت ذات الشجرة، فتاة جالسة لوحدها، يدخل أحمد المسرح، يتمشى بهدوء، يفكر، لا يتبين الشخص الجالس على المصطبة لأول وهلة حتى يتقدم ويعاين ...)

ـ أحمد: آه آمالي .. أنت هنا .. كيف خطر ببالك أن تأتي ..؟

ـ وهل نسيت أنت أن هذه الشجرة المنغرسة بقوة إلى الأرض تمد جذورها وعروقها وشراييها هي شجرتي .. ما دهاك .. يا أحمد .. هل نسيت ..؟

ـ أحمد: لا .. لا .. لم أنسى .. فقط كنت أريد أن اسأل، كيف خطر لبالك أن تأتي ..؟

ـ آمال: أنا أكون حيثما تفتقدني ..

ـ أحمد: أنا ما نسيتك يوماً ..

ـ آمال: هذه الشجرة الكبيرة الحنونة، تجمعنا بظلالها ..

ـ أحمد: لم أنس ما تعاهدنا عليه يا آمالي .. أنها ليلة عجيبة .. أنا أبحث عن سعد إنه ضائع .. أبحث عنك .. أعود إلى الشجرة .. أعود إلى الشجرة .. ماذا يعني ذلك ..؟

ـ آمال: أعلم أن غيوم الحزن تغطي سمائك .. ولكن ما ينبغي لك أن تضل طريقك ..!

ـ أحمد: ها أنت ترين أن قدماي ثابتتان على الأرض ..

ـ آمال: بل وتدقهما وكأنك تدق نفسك مسماراً إلى الأرض، لا تريد عنها فكاكاً، أو كأنك تريد أن تحرثها بقدميك ..

ـ أحمد: وماذا عنك وعني وعن سعد ..؟

ـ آمال: سعد .. آه أيضيع مثل سعد ..؟

ـ أحمد: سعد .. كيف يضيع سعد .. سعد لن يضيع بل هو في محنة فقط ..!

ـ آمال: إنه يخاطب بشراً لم يوجدون، إنه يحادث السكارى على أرصفة الطريق ..!

ـ أحمد: يا لها من مأساة ..!

ـ آمال: وماذا عن بقية الأصدقاء ..؟

ـ أحمد: إنه فرار جماعي .. أو قولي إنه انتحار جماعي ..

(تسمع دقات ساعة تدق أثني عشر دقة)

ـ أحمد: أجراس الساعة تدق ..

ـ آمال: أنها ساعة الأبطال...

ـ أحمد (يقرأ هذه الأبيات) (8)

ليست هناك جزيرة من هو قائم بذاته كجزيرة ..
كل أمرؤ هو جزء من قارة .. جزء من كل ..
فإذا اجترف البحر ذرة من طين
انتقصت القارة
وموت أي إنسان ينقصني .. لأن الجنس البشري يشملني ..

ـ آمال: (تكمل)
لذلك ...
لا ترسل أبداً من يسأل ..
لمن تقرع الأجراس ..؟
إنها تقرع لك ..... أنها تقرع للأبطال ..

(تتقدم ساهرة إلى المسرح وتقترب من آمال وأحمد)

ـ ساهرة: آه هل أنتما هنا (بلهجة مشوبة بالحزن واللوعة) آه كم كنت بحاجة لكما ...

ـ آمال: ساهرة .. لشد ما كنت أريد رؤيتك .. كيف أنت ..؟

ـ ساهرة: وما ينبغي أن تتوقعي مني .. أنا فتاة فشلت أن تحب وأن تحب .. يبدو أن الفشل قد غدا قدرنا ..!

ـ آمال: لا ينبغي أن نغادر المسرح محبطين ومهزومين ..

ـ ساهرة: لقد أحترق مسرحي .. حتى قارئ كفي ولى عني هارباً وهو يولول: برج الحوت يلتهم كل الأبراج ... برج الحوت يلتهم كل الأبراج ..

ـ ساهرة: لا أدري .. قطة .. روح شريرة .. برج الحوت يلتهم كل الأبراج .. آمال هل أبدو مجنونة أو سكرانة ..؟

ـ آمال: لا يا ساهرة .. أنت لست مجنونة ولا سكرانة .. أوه .. يا ساهرة، أنت وقعت ضحية سوء تفاهم وسوء مصادفات ..

ـ ساهرة (بسخرية) هكذا ببساطة .. سوء تفاهم ..؟ سوء مصادفات ..؟ يا للسخرية ..؟

ـ آمال: ساهرة .. ماذا تعرفين عن سعد ..؟

ـ ساهرة: بحث سعد عن السعادة عند سعاد في مشروع سعادة فاشل فلم يسعد ولم نسعد ..!

ـ آمال: دعك من هذا ساهرة ..!

ـ ساهرة: يا آمال .. إنني ...

ـ آمال: (مقاطعة) كان عليك أن تعملي أكثر من أجلكما .. أنت تحبيه ...!

ـ ساهرة: أحبه ..؟ نعم لقد أحببته .. كان لا مفر لي إلا أن أحبه ..

ـ آمال: ولكن ...
ـ ساهرة: (مقاطعة) لم أكن أريد أن اصدق بأني استحق هذه السعادة، كنت أريدها متكاملة .. اسألي هذه الشجرة الأم ....

(تخاطب الشجرة وتنشد بصوت الأطفال) (9)

أنظر لتلك الشجرة
ذات الغصون النظرة

كيف نمت من حبة
وكيف صارت شجرة
فأبحث وقل .. من ذا الذي
يخرج منها الثمرة
وأنظر إلى الشمس التي
جذوتها مستعرة

ـ آمال: (تهرع صوب ساهرة) ساهرة يكفي رجاء عن هذا العبث ..!

ـ ساهرة: عبث ..؟ من قال أني أعبث(بألم ظاهر) إن طعم المر يملئ فمي ..

ـ آمال: أين سعد يا ساهرة ..؟

ـ ساهرة: كنت أظن إنه سيأتي إلى الشجرة .. ولكن هذه خيبة أمل جديدة .. سأذهب ..

(تسير ببطء وهي تغادر المسرح .. وتؤشر بيدها دون أن تلتفت إلى الوراء:
برج الحوت يلتهم كل الأبراج .. برج الحوت يلتهم كل الأبراج)

ـ آمال: عودي ساهرة .. عودي

(ساهرة تغادر المسرح وهي تلوح بيدها)

ـ أحمد: إن كل هذا يبعث على الضيق ..

ـ آمال: إنها النهاية المتوقعة .. عندما يلعب المرء دوراً لا يناسبه ..

ـ أحمد: أهكذا إذن .. هذه لعبة ملعونة .. لا يوجد فيها رابح .. الكل خاسرون، بلب مسحوقون ..

ـ آمال: فضيع .. كانت تردد بشكل رهيب .. برج الحوت يلتهم كل الأبراج ..

(يدخل سعد المسرح، بملابس متهدلة، يسير بلا انتظام .. يقترب من الشجرة والمصطبة، وآمال وأحمد)

ـ سعد: (بدهشة) آ.. آ ..آ ها .. (يمطها لفظاً) صديقي العزيزين أحمد وآمال هنا .. تحياتي يا سليمان الحكيم ..

ـ أحمد: (مرحباً) أهلاً سعد، كنت أعلم أنك سوف تأتي إلى هنا .. ستعود إلى شجرتك .. شجرتنا ..

ـ سعد: ها أنا يا شجرتنا الحبيبة، أنا وأنت في قلب المحنة نتساءل من جديد ما العمل ..؟ أتذكر يا أحمد أول مجيئنا إلى المدينة كنا نسأل أنفسنا تحت هذه الشجرة ما العمل ..!

ـ أحمد: الفشل مرة لا يعني الهزيمة .. أنظر لقد ربحنا أنفسنا والتجربة .. أنظر لتلك الشجرة كم هي واسعة وكبيرة وظليلة .. أنها تقول للبائسين هلموا إلي .. تمد ذراعيها ..!

ـ سعد: تموت في لحظة الوعي الأمنيات ... ويطلق الليل على أحلامنا النيران، وأنت تصل إلى النهر .. تبلل كفيك وقدميك .. ولكنك تموت ضمآن ..

ـ أحمد: كان سراباً .. سنحاول مرة أخرى ..

ـ آمال: لا تتوقفوا ..

ـ سعد: تتقاذفني الأمواج.. ألعق ملوحة البحر .. والشاطئ بعيد .. ولا تلوح في الأفق مرساة ولا فنار يهدي التائهين ..

ـ آمال: سأقف على الشاطئ ألوح لكم بمنديل، بشراع أبيض .. أنصتوا إلى حفيف الأغصان.. صوتك الحبيب يناديني تعال ..

ـ أحمد: صوتك الحبيب يناديي تعال ..

ـ سعد: أأمل يرتجى من نوارس متعبة ..؟

ـ آمال: تحط على شجرة الأمل فترتوي عطفاً وأملاً

ـ أحمد: إنني أستمع إلى أصطفاق أجنحتها ..

ـ سعد: أحقاً ما تقول يا أحمد ..؟ أيهطل المطر أخيراً ..؟

ـ أحمد: نعم يا سعد .. نعم .. وسيخضر زرعنا ويملأ الأطفال حاراتنا لعباً وصخباً ومرحاً وحباً ..

ـ سعد: أمسك بيدي أحمد .. يا صديقي ..

ـ أحمد: هاك يدي (يناوله يده) تعال ..

ـ آمال: هيا يا سعد .. تعال .. تجاوز تلك الموجة، فأنت أبن البحر والنوء، ولن تغرقك موجة عابرة ..

ـ سعد: لكن النوء شديد يا آمال ..

ـ أحمد: فليشق صدرك الماء .. وتنهار الموجة أمام إصرار ذراعيك ..

ـ آمال (بفرح تؤشر إلى السماء وتسمع صوت الرعود والبروق) أنشروا أشرعتكم.. هلموا إلي .. إنها الرعود .. إنها بشارة السماء .. إنها علامة المطر .. لا يوقفنكم شيئ ..

ـ أحمد: (يمد يده ويستقبل أولى قطرات المطر ويصيح بفرح) المطر ... المطر ... المطر يهطل .. المطر يهطل ...

(يدخل المسرح ركضاً الشباب: نبيل، بلال، باسل، وفارس)

(أحمد يحي الجميع بأسمائهم : هيا يا سعد .. يا نبيل .. وبلال وفارس أنت صديقنا وصديق الشجرة .. هيا ..
يثب أحمد إلى وسط المسرح ... يشتد المطر .. يقف باستعداد عسكري ويصدر الأوامر..)

ـ أحمد: هيا ... أشرعوا الأشرعة .. سنقلع بعد قليل .. الريح ...

ـ آمال: ستملأ أشرعتكم الرياح .. كجبل أبيض .. كمارد يهرول يعرف طريقه ..

ـ أحمد: الوجهة ....

ـ آمال: إلى الخير .. إلى الأمان والسلام ..

ـ أحمد: ليأخذ كل موقعه ..

(يشتد هطول المطر)

ـ أمال: هيا يا سعد .. تعال ..

ـ سعد: ساعديني يا آمال .. ساعدني يا أحمد ..

(آمال وأحمد يساعدان سعداً الذي يتكأ على ذراعيهما ..)

ـ أحمد: هيا يا أصدقاء .. لنشارك جميعاً في احتفالية المطر ..

(يخرج الجميع من المسرح وهم يتهاتفون .. المطر .. المطر ..)

(يدخل السكرانان يهرولان ويقفان تحت الشجرة .. بينما المطر مستمر والرعود)

ـ الأول: (بفرح) وأخيراً هطل المطر .. ألست فرحاً .. (يضحك بقوة) .. هطل المطر ..

ـ الثاني: نعم .. (يضحك) كنت مستعداً أن أراهنك بعمري أن السماء ليست ممطرة .. يا لك من أحمق لماذا لم تراهني لتفوز ..؟

ـ الأول: قل لي ماذا ستفعل ..؟ أما زلت تريد التحليق .. وتطوف في الأحلام ..

ـ الثاني: سأشيد زورقاً .. ونشرع شراعنا .. أقول لك .. ألا تأتي معي ..

ـ الثاني: إلى أين ..؟

ـ الأول: أنظر (يؤشر بيده ينظران إلى الأفق .. يضع كل منهما كفه فوق عيونه .. كأنهما ينظران إلى شيئ بعيد ..)

ـ الأول: يا إلهي .. حقاً .. لقد خرج الناس جميعاً ..

ـ الثاني: (يقذف بقبعته من رأسه عالياً) لن نسكر بعد اليوم .. لن نحلم .. المطر .. المطر .. (يقولها ويخرج من تحت الشجرة إلى الأمام) ومتابعاً: تعال .. تعال .. لنعانق هذا المطر الرائع .. تعال ..

(يتقدم الأول ويمد يده للثاني، ويعقدان حلقة بذراعيهما الممدوتان، بينما المطر يشتد ويغنيان ويرقصان تحت المطر)
ترلالالا ... ترلالالا ... ترلم لي .. ترلم لي ... تر لالالا .. هي ... ترلالالا .. هي ...

(ثم يقفان بغتة)

ـ الأول: لنلحق بالناس .. هيا لنركض ..

ـ الثاني: هيا ..

(يخرجان من المسرح وهما يهرولان)

ستارة
(على موسيقى أغنية فيروز: شتي يا دني تا يزيد موسمنا ويعلا)

هوامش:

1. أغنية يؤديها الأطفال في العراق خلال اللعب الطفولي
2. قصيدة مغناة لنزار القباني

1. جون شتاينبك: كاتب أمريكي حصل على جائزة نوبل كان مؤيداً لنضال الشعب الفيتنامي، ثم أنحرف وأيد العدوان الأمريكي على فيتنام
2. ديوجين مفكر إغريقي له مقولته الشهيرة : طوبي لمن يشعل في ظلام الليل شمعة
3. أبن خلدون والجاحظ مفكران عربيان، والمتنبي شاعر مهم في عصور ازدهار الثقافة العربية.
4. أسطورة سيزيف: أسطورة إغريقية تمثل إصرار الإنسان على تحدي المصاعب واجتياز العقبات.
5. مقطع من قصيدة الذي يأتي ولا يأتي للشاعر عبد الوهاب البياتي
6. هذه الأبيات هي للشاعر البريطاني جون دن
7. مقطع من قصيدة شهيرة للشاعر معروف الرصافي، ينشدها الأطفال في المدارس